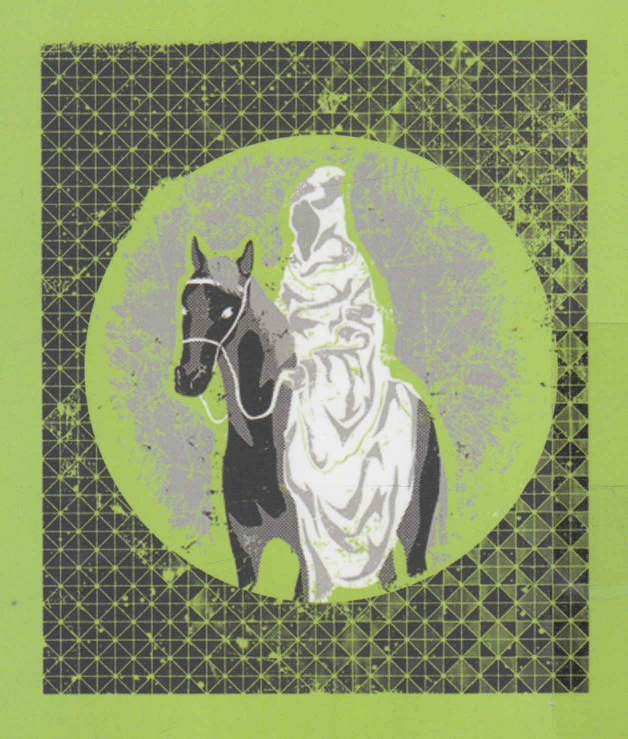
لماذا تخلّفنا ؟

ولماذا تقدم الآخرون ؟

شريف الشوباشي



دار العين للنشر

لماذا تخلّفنا؟
ولماذا تقدم الآخرون؟

لماذا تخلّفنا؟
ولماذا تقدم الآخرون؟

شريف الشوباشي

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: محمد عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٦٠١ /٢٠١٣
I.S.B.N 978-977-490-227-7

لماذا تخلّفنا؟
ولماذا تقدم الآخرون؟

شريف الشوباشى

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الشوباشى، شريف.

لماذا تخلّفنا؟ ولماذا تقدم الآخرون؟/ شريف الشوباشى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٢٧ ٧

١- الثقافة العربية.

٢- التراث العربى.

أ- العنوان

٣٠١,٢٠٩٥٣

رقم الإيداع / ٩٦٠١ /٢٠١٣

المحتويات

منهج البحث

فى كتابه الذى صدر عام 1926 بعنوان "فى الشعر الجاهلى" اتّبع طه حسين مَنْهج الفرنسى ديكارت وهو الفيلسوف الذى أسَّسَ للفكر العقلانى فى القرن السابع عشر وأنشأ منهج الشكّ الذى لعب دورا أساسيا فى بناء الحضارة الغربية الحالية. وقد شرَحَ ديكارت فى كتابه الأشهر "حديث المنهج" منبَع فكرته فقال إنه قرَّر أن يَمْحوَ كل ما فى عقله وكل ما تعلمه وآمن به وأن يَشكّ فى أى معرفة لا يقوم عليها دليل قَطعِىّ لا يقبل الشك ولا الجدل. ثم اكتشف وهو يتحاور مع نفسه أنه يستخدم عقله أى أنه يُفكر، والتفكير فى حد ذاته دليل دامغ على الوجود، فقرَّرَ أن يبدأ من هذه الحقيقة الأوليّة وبَنَى نظريته على تلك المقولة التى يعرفها كل من يُجيد القراءة والكتابة: "أنا أفكر إذا أنا موجود".

واستنادا إلى منهج ديكارت شرَعَ طه حسين في عملية إعادة البحث والنظر والتمحيص فى كافة المعلومات الواردة فى كُتُب التراث عن الشعر الجاهلى وخرج بنتائج لم يتوصَّل إليها أحد قبله لسبب واضح جَلىٍّ وهو أن كل من سَبَقوه انساقوا وراء منهج النقل والاتّباع والتسليم بما جاء به السلف.

أما أنا فيَحْكمنى فى هذا الكتاب منهج استَنْبَطه من مراقبة تراثنا الفكرى والثقافى حيث اكتشفتُ أن لدينا نزعة فطرية لرفض الواقع الَملموس والَمحسوس والمُتَفق مع المنطق إذا تعارض هذا الواقع مع البناء الاعتقادى الذى تركَه لنا الأقدَمون والأوَّلون. وينسَحق العقل العربى تحت وطأة المَوْروث العقائدى فيأبَى أن يعترف بأية أفكار أو نظريات يتصور أنها تمَسّ ما خلَّفه السلف على أساس أنها تُناقض جوهر عقيدته.

ومَنهجى هو عكس ما اصطنعه غالبية من وضعوا لَبِنات ثقافتنا حيث يَنبَنى على مبدأ "الحقيقة فوق العقيدة"، أى أنه يقوم على تغليب ما يتوصل إليه الإنسان من حقائق عن طريق المَعرِفة العلمية على ما وصل إلى مداركه من خلال السَلف أيا كانوا، وذلك فى حالة وجود تناقض بين الاثنين.

وأدركُ تماما أن هذا المبدأ صعب التنفيذ لأننا فطرْنا على التسليم بما سَمعناه من آبائنا وأساتذتنا وما قرأناه من تراث تَسَلَّل إلى أعماق عقولنا وبَسَط سيطرته عليها وصار جزءًا لا يتجزأ من الجينات المتوارثة للإنسان العربى. ومع ذلك فإننى أعتبر أن هذا المنهج الذى أدعو إلى الأخذ به هو

سبيلنا الوحيد للتوصل إلى الحقيقة والخروج من مأزق التخلف الحضارى الذى تَوَحَّلت أقدامنا وأجسادنا وعقولنا فيه إلى أقصى الحدود.

وواقع الأمر أن ردّ الفعل التلقائى لغالبية الناس فى كل مكان عبر التاريخ كان دائما رفض أية حقيقة تتعارض مع ما ترسَّخ فى عقولهم من أفكار أو عقائد. وسوف أعطى مثالين أحدهما سلبى والآخر إيجابى بمعنى أنه فى الأول يرفض الإنسان الواقع بسبب رُسُوخ قناعة ثابتة فى عقله ووجدانه كحقيقة مُطلقة لا تقبل الجدل، والثانى يجعل الإنسان يتقبّل أمرا مناقضا للعقل والواقع لمجرّد أنه مؤمن بوجود هذا الأمر.

فغالبيتنا مؤمنة بأن الصحابة رجال فوق الشبهات ولا يمكن أن تصْدُر عن أىٍّ منهم تصرفات تتناقض مع المُثل العليا والأخلاق الكريمة. فإذا قرأ أحد فى كتب التراث أن الصحابى معاوية بن أبى سفيان الذى مات الرسولُ وهو راض عنه وكان أحد كتاب الوحى وكانت شقيقته أم حبيبة زوجة للرسول، قَد أمَرَ بدَسِّ السُم فى العَسَل لرجل اسمه الأشتر كان مناصرا لعلى بن أبى طالب، وعندما بلغه أن الرجل قد مات، قال متهكما: "إن لله جُنودا من عَسَل"، فإن رد فعل هذا القارىء سيكون رفض هذه الرواية تلقائيا والغضب منها لأن الصحابى معاوية بن أبى سفيان لديه من أوراق الاعتماد التى ذكرنا بعضها ما يجعله مُنَزّها عن الخطأ، ناهيك عن ارتكاب جريمة متكاملة الأركان وهى دسّ السم فى الطعام الذى يعلم أن الأشتر يُحِبّه كثيرا، وهو العسل، ثم السخرية من مصرعه بعد ذلك.

لكن واقع الأمر أن تلك الرواية موجودة فى معظم كتب التراث الموثوق بها وبالتالى فلا يمكن رفضها لمجرد اقتناعنا بأن الصحابة فوق مستوى الشبهات. بل إن بعض الكتب ومنها "الفتنة الكبرى" لطه حسين تؤكد أن عمرو بن العاص وكان أبرز أنصار معاوية فى حربه ضد عليّ بن أبى طالب كان يُردِّد هو الآخر نفس الجملة تعليقا على موت الأشتر بصيغة المزاح قائلا: "إن لله جنودا من عسل".

مثال عَكْسِى لرجل يؤمن بوجود الأطباق الطائرة ويؤكد أنه رأى بعينيه طبقا طائرا يُحَلق فى السماء ويهبط على الأرض فى حين أن شخصا آخر كان حاضرا إلى جواره فى تلك اللحظة يؤكد أن ما رآه كان مجرد ضوء أو انعكاس لضوء مُنبعث من مصدر بعيد.

فالأول قام بتغليب العقيدة على الحقيقة وأصرَّ على نفى واقع الضوء الذى رآه الآخر، والسبب هو اقتناعه الراسخ بوجود أطباق طائرة.

وهناك مثل شعبى يقول: "اللى يخاف من العفريت يطلع له" وهو مَثل يقوم على حِكمة وتجربة عميقة لأن من يُؤمن بالعفريت ومُقتنع بوجوده على الأرض مؤهَّل نفسيا لإقناع نفسه بأنه رأى العفريت، فى حين أن من لا يؤمن به لا يراه أبدا. وأنا شخصيا قمتُ بزيارات عديدة إلى الريف المصرى وسِرتُ فى جنح الليل وسط الأشجار والغيطان لكن العفريت لم يَتَعَطف علىّ بالظهور ولو مرة واحدة مع أنه من المفترض أنه يُؤثِر المواقع المُوحشة ويعشق الأماكن المظلمة.

وَوَضْع العقيدة فوق الحقيقة يُصيب الإنسان بغشاوة تجعل العين ترى

الصورة أمامها مَهزوزة ومبتورة وتجعله يقتنع قناعة راسخة بأن تلك الصورة التى أمامه هى وحدها الصحيحة وأن ما عداها مغلوط ومغاير للواقع.

لكن هناك عباقرة خرجوا منذ أقدم العصور على قاعدة "العقيدة فوق الحقيقة". فقبْل ميلاد المسيح بأربعة قرون أعرب أرسطو عن اختلافه مع أستاذه ومُعلمه أفلاطون فغضب الناس منه لأن أفلاطون كان يُعتبر آنذاك نصف إله وكان كل ما يقوله أو يكتبه كأنه مُنزّل من السماء فأجاب أرسطو: "أننى أحِبُّ أفلاطون كثيرا.. لكنّى أحبُّ الحقيقة أكثر مما أحب أفلاطون".

وإذا كان تيار التقدّم والتنوير فى حضارتنا قد اختار دائما مبدأ تغليب الحقيقة على العقيدة فإن نواطير الماضى انتهجوا دائما المنهج المعاكس. وعندما قرر العلماء العرب والمسلمون الخوض فى علْم المنطق الذى وَضَع أسُسَه فلاسفة اليونان القدماء أخذوا المنهج والآلية لَكنهم تركوا غاية هذا العلم. فلم يكن هدفهم من المُقدّمات المنطقية هو الوصول إلى "الحقيقة" وإنما إثبات "العقيدة" التى يؤمنون بها، وكانوا يَضَعون حل المسألة المنطقية قبل المُقدِّمات لأن هذا الحل هو ما يريدون إثباته وفرضه على الجميع، فى حين أن جوهر المنطق هو الوصول من المقدمات إلى حقيقة غير موضوعة مُسْبقا وغير مُقَررة سلفا.

وقد حيَّرَتْ نظرية المعرفة كبار الفلاسفة والمفكرين منذ قرون طويلة.

وكانت النظريات الأولى أن المعرفة مَصدرها الحَوَاس.. لكن اتضح أن الحواس قد تكون خادعة، فأنت ترى القمر أكبر حجما من النجوم فى السماء فى حين أنها فى الحقيقة أكبر منه مئات المرات. وكانت هناك نظرية أخرى أن العقل هو مصدر المعرفة لكنه اتضح أن العقل أيضا كثيرا ما يكون خادعا. وظهر البريطانى ديفيد هيوم بالنظرية التجريبية أى أن التجربة هى المصدر الوحيد للمعرفة. وفى كل الأحوال فإن الإنسان اكتشف أن المعرفة تتغير وتتبدَّل بفعلِ البحث المستمر عن الحقيقة.

والواقع أن المَعْرفة هى خليط فى غاية التعقيد يَجْمع بين الحواس والعقل والنقل والتجربة والحَدْس والخيال، وعلى الإنسان أن يكون فى غاية الحرص والحذر والبعد عن الغرور وهو يصنع لنفسه قناعات راسخة ومعارف ثابتة. ولا يعنى هذا أنه عليه أن يرفض كل ما يخرج عن إطار العقل والحواس. فأنا مثلا لم أرَ البرازيل فى حياتى لكنى "أعرف" أن هناك بلدا كبيرا اسمه البرازيل موجودا بقارة أمريكا الجنوبية. والناس لم ترَ الله ولا تُدْركه بالحواس مثل السمع والبصر لكنها تؤمن به وتَعلم أنه خالق السموات والأرض.

واتعهّد لك أيها القارىء العزيز بأن ألزِم نفسى فى هذا الكتاب إلزاما صارما بإخضاع كافة عقائدى الشخصية لمعيار الحقيقة الموضوعية وبالتالى فلن أكتب كلمة واحدة لا يقبلها عقلى ولا حرفا واحدا يتناقض مع المنطق.

ومَن يرفض مبدأ "الحقيقة فوق العقيدة" عليه أن يتوقف فورا عن قراءة هذا الكتاب وأن يُسْرع بإلقائه بعيدا عنه لأنه قد يَجد فيه ما لا يُعجبه، بل

ربما يجد فيه بعض ما قد يَصدِمه، مع أننى لم أقصد أن أصْدم أحدا، لكنى مثل غيرى من الكتاب أبحث عن الحقيقة، وإن كنتُ مقتنعا بأن الإنسان لا زال بعيدا عن فهم وإدراك لغز الحياة وربما لا يصل ابدا إلى إجابة نهائية شافية لهذا السؤال الأزلى حول معنى الحياة ومغزى وجوده على كوكب الإرض.

إليكم يا حراس الماضى

استباقا للاتهامات الجاهزة والمُعَلّبَة التى يَقذف بها حُرّاس التاريخ الرسمى للأمة الإسلامية فى وجه كل من يستخدم العقل والمنطق من أجل فهم تراث العرب والمسلمين أستهلّ كتابى هذا بالتأكيد على معرفتى الكاملة بأن الحضارة العربية الإسلامية قد أضاءت العالم بأشعّة العلم والمعرفة لقرون طويلة. وأزيدُ على هذا أنه لو كانت جائزة نوبل تُمْنَح للعباقرة فى الماضى البعيد لحصل المتنبى والمعرى وغيرهما كثيرون على نوبل للأدب ولحصل الرازى وابن سينا على نوبل للطب وابن الهيثم للفيزياء وجابر بن حيان للكيمياء. لو كانت جائزة نوبل تُمنح فى الماضى البعيد لاحتكرها العرب، أو بمعنى أدق المسلمون، احتكارا تاما لمدة قرون طويلة فى كافة المجالات العلمية والإبداعية.

لكن المشكلة أن هذه الحضارة الكبيرة كانت تَحْمل فى طيّاتها بذور الانهيار الذاتى كما كان الحال بالنسبة للحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية وكما هو الحال بالنسبة للحضارة الغربية الحالية التى لن تستمر بالتأكيد إلى أبد الآبدين، وسوف يأتي اليوم الذى تحل فيه محلها حضارة أخرى فتيّة تَحمل شعلة التقدم البشرى على عكس ما تصور فوكوياما صاحب كتاب "نهاية التاريخ" بأن شمس الغرب لن تغيب أبدا.

فخُلود أية حضارة أمرٌ يُناقض منطق التاريخ ويُجافى تجارب الواقع، وسوف تنهار الحضارة الغربية الحالية لأنها حُبْلى بعناصر قد تكون غير ظاهرة بجلاء الآن لكنها تشكل جذور السقوط والتهاوى. لكن تلك قضية أخرى ليس مجالها هذا الكتاب.

أما فيما يتعلق بنا فإنه علينا أن نقرَّ ونعترف بأن حضارتنا سَقطتْ فى مستنقع التخلف منذ قرون لأسباب سوف أحاول أن أشرحها فى صفحات هذا الكتاب وأن أردَّها إلى جذورها التاريخية والتراثية. وبعد أن كانت أوروبا أو حضارة الغرب مُندَحِرة أمامنا صرنا نحنُ فى موقع الحضارة المُنهزمة والمَقهورة والمكبوتة وهو ما يُفسِّر طفرات اليأس التى تنبع من عالمنا العربى الإسلامى وتتخذ شكل العمليات الإرهابية وهى سلاح اليائس العاجز الذى فاتته فرصة الانتصار فى المعركة الحضارية فلجأ إلى الانفراد بمن يمثلون الغرب فى نظره وهم مواطنو أمريكا وأوروبا فيقوم بقتلهم ونَحْرهم وهو يصيح "الله أكبر" فيَفُكّ بذلك بعض العُقَد المتجذرة فى أعماق نفسه.

علينا أن نقرَّ ونعترف بأننا وَقَعنا منذ بضعة عقود وتحديدا منذ نكسة 1967 تحت تأثير مجموعة من الأفّاقين والمشعوذين والدراويش قرَّروا أن يُصبحوا سادة المجتمع من خلال الاتجار بالدين والمبادىء السامية فكانوا كالكثير من أسلافِهم الذين نشروا فى الماضى أسوأ القيم والسلوكيات والأخلقيات تحريفا لرسالة الإسلام.

النقطة الثانية التى أودّ أن أوضحها من البداية هو أن هذا الكتاب ليس عن الدين ولا عن القرآن ولا عن السُنّة، إنما هو عن استغلال الدين واستثمار القرآن واستخدام السنة من أجل السيطرة على عقول الناس والهيمنة على مُقدَّرات الشعوب واعتلاء المناصب والمراكز والحصول على الجاه والسلطان فى الدنيا.

هذا الكتاب لا يَخصّ الدين الإسلامى بل يتعلق بالحضارة التى أفرَزَها هذا الدين وأعطى لها زخما وديناميكية جبارة فى البداية حتى سادت العالم المعروف آنذاك، إلى أن انتصرت عناصر التحلل والانحطاط بفعل مفاهيم خاطئة ورؤى مغلوطة وعناصر أخرى متعددة ومُتَشعِّبة أدَّت إلى تفتّت وتفكيك أوصال تلك الحضارة العظيمة تدريجيا حتى سقطت معظم بلدانها فى براثن الاستعمار الغربى وإلى أن وصلنا إلى حاضرنا الأليم.

وكما قال ويل ديورانت مُؤرخ الحضارات الشهير فإن أية حضارة كبيرة لا تتعرَّض للغزو الخارجى إلا إذا كانت قد دَمَّرت نفسها من الداخل. وهذا ما حدث للحضارة الإسلامية كما حدث مع كل الحضارات القديمة دون استثناء.

فكيف دمَّرنا أنفسنا من الداخل؟ كيف وصلنا إلى هذه الدرجة من العجز والهوان والتخلف العقلي؟ وما هي العقبات التي لا زالت تقف حائلا دون عودة حضارتنا إلى أرقى مكان وهو ما تستحقه بالتأكيد؟

في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة سوف نكتشف أن العناصر التي أدَّت إلى انهيار حضارتنا في الماضي هي نفسها التي تُكَبِّل عقولنا وتَحْرمنا اليوم من التطور والرقي لأن الآفات الماضية لا زالت قائمة إلى الآن بل إننا نُغذيها ونَحْميها ونطوِّرها كما يسقي الإنسان الزهور في الحديقة خوفا من أن تَذبل.

وحتى أكون واضحا تمام الوضوح في تحديد هَدَفي من هذا الكاتب أقول إنه محاولة لاستكشاف كيفية استغلال الحكام والسادة والطبقات العليا للدين الإسلامي كأداة تُمكِّنهم من استعْباد الرعية وكيف أدخلوا في رَوْع العامة مفاهيم وأفكارا استنبطوها من القرآن والسنة عن طريق بعض المُفسِّرين الذين لم يَتورَّعوا عن تضليل الشعوب وتخدير إرادتها وعن إضفاء عباءة الحلال على كل مظالم الحاكم، تماما كما استغل الحكام في العصور الحديثة تَرزية القوانين لسَنّ تشريعات من شأنها أن تُقنع المواطنين بأن السلطة تحترم القانون وتطبّق الأحكام العادلة على أفراد الشعب.

هذا الكتاب يكشف أكبر عملية نصب واحتيال في التاريخ البشري وهو النصب والاحتيال الذي قام بها السادة والخلفاء والسلاطين والملوك والرؤساء والوجهاء والطبقات الحاكمة منذ أربعة عشر قرنا وتَمكنوا بفضلها من إحْكام سيطرتهم على الشعوب باسم الدين والشريعة، ولولا

شيوخ و"علماء" علّلوا وبرّروا وأضفوا الشرعية الدينية على هؤلاء السادة طوال حقب التاريخ لكانت الشعوب قد ثارت على الطغاة واقتلعتهم من السلطة منذ زمن بعيد.

هذا الكتاب يقوم على فكرة أساسية هى أن كل العيوب والآفات والشوائب والنواقص والمساوىء التى نعانى ونشكو منها وتعوّق حركة النمو والتقدم والديمقراطية ليست وليدة اليوم ولا هى من صُنع هذا الجيل ولا الذى قبله، وإنما لها جذور ضارِبة فى عُمق التاريخ العربى الإسلامى. لذلك فإن جهدى الأساسى هنا يَنْصَب على البحث والتنقيب عن منابع التخلف فى أعماق الحضارة العربية الإسلامية.

كل العيوب التى نشكو منها ولا نعرف أصولها والتى تَحْرمنا من الرقى والتقدم ومن اسْتِتباب العدل والمساواة والسلام الاجتماعى وتعرقل طريق الديمقراطية والانتخابات الحرة هى نتيجة لميراث ثقيل نرفض بعناد أن نتخلى عنه، والمصيبة الأعظم أننا نعتبر هذا الميراث طوق النجاة الأوحد وسبيل الخلاص ومنجاة من كل الكروب.

وغالبية هذه العيوب والآفات كانت موجودة فى كافة المجتمعات الإنسانية القديمة لأنها كانت سِمات لعصور مُتَخَلفة لم تصل فيها المجتمعات إلى المستوى الحالى من التقدم فى العلم والمعرفة. لكن المجتمعات التى سارت فى طريق التقدم نجِحَت فى القيام بعملية غرْبلة لتراثها ولِمَا خلّفه السلف واحتفظت بالإيجابى منه وسارَعَت بالتخلص من السلبيات.

أما نحن فنُصِرّ على الاحتفاظ بالصالح والطالِح ونَتمسَّك بكل ما قاله وصَنَعَه السلف وبكل الموروث التراثى دون تمييز. ولأننا نتمسَّك بماضينا ونرفض تغييره أو مُراجعته فإننا نتمسك فى نفس الوقت بكل العيوب والمثالب والآفات التى نهشت فى الجسد العربى الإسلامى وأدت إلى اعتلاله ورِقاده. وسوف أكرِّس هذا الكتاب لكشف الجذور التاريخية والتراثية لبعض هذه العيوب مثل التعصّب والانغلاقِ والخضوع للحاكم والطاعة العمياء وعدم تحمل المسئولية والإهمال والكَذب واحتقار قيمة العمل والالتفاف حول القانون والتَعَلق بالخرافات والأوهام.

وإذا اكتفينا برصد عيوب المجتمعات العربية ونواقِصِها فى العصر الذى نعيش فيه فسنظلّ ندور فى حلقة مفرغة لا تنتهى كَما يحدث منذ أكثر من قرن ونصف قرن. سنكون عندئذ كالطبيب الذى يُعطى برشامة أسبرين وكمّادات مُثلجة لشخص لديه حرارة مرتفعة فتنخفض السخونة بصفة مؤقتة، ومثل هذا الطبيب يكون قد أضرَّ بالمريض أكثر مما نفعه، لأنه لم يكتشف السبب الذى أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة، وسوف تعود إلى الارتفاع فور زوال أثر الأسبرين والكمادات تماما كما حدث بالنسبة للعالم العربى الذى سرعان ما سقط ثانية فى هوة التخلف بعد عصر النهضة الذى جَعَل مصر ودولا عربية أخرى تقطع طريقا لا بأس به فى طريق التقدم والنمو.

ولن ينجح هذا الطبيب فى علاج المريض إلا بالبحث والتنقيب عن أصل الداء وبالتعرف على الفيروسات والميكروبات التى تنهش جسده من

الداخل وتتسبَّب فى رفع حرارته ومن الممكن عندئذ أن يجد المضادات الحيوية والعلاج اللازم للقضاء المبرم على المرض.

هذا الكتاب هو سبيلى لمحاولة فضح الأساليب المُلتَوية التى استغلها الكثير من أولى الأمر بفضل تواطؤ مشايخ السلاطين لاستثمار الدين والسيطرة على البسطاء عن طريق إيهامهم بأنهم يريدون الخير للناس فى الوقت الذى كانوا يبحثون فيه عن الخير والرخاء لأشخاصهم وأسَرِهم وعشائرهم. ولا شك أن السياسة كانت السبب الأساسى فى عملية النصب العظمى التى تحدثتُ عنها والتى بدأت بمحاولات تأويل القرآن والأحاديث خلال حقبة الخلاف بين علىّ بن أبى طالب ومعاوية وكان رفع المصاحف وإطلاق شعار "لا حكم إلا لله" هو اللبنة الأولى التى فتحت الباب على مصراعيه لإقحام الدين فى شئون الدنيا الخلافية واستخدامه كذريعة للانتصار المعنوى على الخصم أو العدو.

قد يقول البعض بإنه سَبَق هذا استغلال الدين فى موضوع مَقتل عثمان وهذا صحيح، وحدث مرة ثانية فى معركة الجمل وهذا صحيح أيضا. لكن رفع المصاحف فى صِفين كان فى رأيى الحدث البارز الأول فى تاريخ الاستغلال المُمَنهج للإسلام من أجل تحقيق أغراض دنيوية.

وتفاديا لتهمة أخرى تقليدية قد تُوَجَّه لهذا الكتاب وهى تهمة التأثر بالاستشراق والمستشرقين فقد تعمدتُ ألا أستخدم أية مراجع غير عربية وإسلامية وأن أستبعد تماما كتابات المتخصصين الأجانب والمستشرقين الذين يثيرون شكوك حراس العقيدة التقليديين حيث لا يرون فيهم إلا

أعداء لديننا وحضارتنا، ولن أستشهد بكتابات غير مسلمين، اللهم إلا في قضايا عامة لا تتعلق بالإسلام.

ولعل لبّ أزمتنا الحضارية تَكمُن في خصام ثقافتنا مع الزمن والتطور. فالعربي مُقتنع بأن اللحظة التي يعيشها هي الأبديَّة وأن القيّم والمبادىء ثابتة جامدة خالدة لا تتغير مع ظروف كل عصر. فهو لا يدرك جَدَلية حركة الزمن لأنه مقتنع بأن ما هو صالح في عصرٍ ما صالح لكل العصور وأن الوَصْفة التي كانت ناجحة في زمن ما وفي ظروف ما ستظل ناجحة إلى أبد الآبدين، وهي قناعة تلعب دورا أساسيا في تَيَبّس العقل العربي والإسلامي وتَكلسه وكَسَاده. أما أوروبا فلم تنجح في الارتقاء في عصر النهضة إلا عندما أدرك أهلها عَبَثية هذا المفهوم وأن لكل زمن حقائق خاصة به ولكل عصر مفاهيم وقيم تختلف عن العصور الأخرى.

ومنذ قرون طويلة يعيش العالم العربي والإسلامي في حالة تَجَمّد فكري وعقائدي وثقافي وكأنه قد تم حَبْسه في "ديب فريزر" وهي الثلاجات الضخمة التي تُسْتَخدم لحفظ اللحوم وغيرها من المأكولات لفترات طويلة في درجات حرارة منخفضة للغاية، وكأن المطلوب من العقل العربي هو أن يظل جامدا متشبثا بالماضي ولا علاقة له بالتطور والحداثة، وكل هَمّ أبناء العالم العربي الإسلامي هو الحفاظ على القيم والتقاليد كما هي دون أدنى تغيير، وكل المجهود الذي يبذله العقل العربي هو الدفاع عن الماضي والذبّ عن التراث والتقاليد والتصدي لأية محاولات للتجديد والتفكير والتَكيّف مع الواقع المتغيّر.

ومنذ بداية عصر النهضة الذى بدأ يُفيق فيه العقل العربى من غيبوبته بعض الشىء فى منتصف القرن التاسع عشر سَعَى كثير من المُفكرين والمُصْلحين إلى محاولة العثور على الأسباب الكامنة وراء تخلف العرب والمسلمين بعد ازدهار حضارتهم لقرون طويلة، لكن أحدا لم يَجد فى نفسه الشجاعة الكافية لأن يُبحِر فى السبب الجَوْهرى لتخلفنا عن ركب الحضارة ولم يجرؤ أحد على القيام بعملية مواجهة شجاعة مع الماضى ومع التراث من أجل التخلص من شوائبه.

وكان المانع لذلك هو تلك القدسيَّة التى يَحظى بها التاريخ الرسمى والسلف والأقدَمون فى الذهنية العربية الجماعية. فتاريخ الصالحين عندنا لا يُمسّ وأقطاب الفكر التقليدى فوق أى مراجعة أو مناقشة ناهيك عن أى نقد أو إعادة نظر، وأى كلام عن الدين خارج النصوص الرسمية التى وضعها الأقدمون يُعدّ محظورا وخطا أحمر لا يمكن الاقتراب منه، وقد دَفَع الكثيرون الثمن غاليا عندما تخطّوا حدود المقدَّسات أو ما يعتبره حراس العقيدة مُقدَّسات لا تُمَس.

وقد قرَّرت فى هذا الكتاب أن أخوض فى المحظور لاقتناعى بأن الداء العربى مَزروع بداخلنا وكامِن داخل جينات متوارثة فى أعماق كلّ فرد منّا، والسبب الرئيسى فى تأخرنا هو رفضنا القيام بقطيعة نهائية مع جذور التخلف النابعة من ماضينا وعدم الاحتفاظ من تاريخنا إلا بنقاط الضوء وهى كثيرة، لكننا نَغضّ الطرف عنها ونتمسك بالقشور والظواهر التى تجرّنا إلى أسفل وتَمنعنا من التقدم. وكل من حاول أن يكسر قاعدة الصمت

وكل من اجترأ على أن يطرح أفكارا أو حتى تساؤلات تخرج عن الطرق المرْصوفة قد اكتَوَى بنار جهنم فى الأرض على يد حراس المبادىء الجامدة والأزلية التى وضعها أناس فى عصور مختلفة وقرّر من جاءوا بعدهم اتباعها دون تفكير أو مناقشة وكأنها حقائق منزلة من السماء.

واحتراما لعقل القارىء الكريم فإننى لا أريد فى هذا الكتاب أن أكرِّر عليه ما سمعه وقرأه مئات بل آلاف بل ربما مئات الآلاف من المرات منذ نعومة أظافره سواء فى خطب الجمعة بالمساجد أو فى الإذاعة والتلفزيون والصحف السيارة والكتب، القديمة منها والحديثة، عن عظمة الحضارة الإسلامية وأنه لم يكن من الممكن أن تكون أبدع ولا أروع ولا أرقى مما كانت عليه وأن رجالها الأوائل كانوا ملائكة هابطين من عَلياء السماء لم يُخطئوا فى حياتهم خطأ واحدا ولم تكن لديهم أية هفوة أو هَنّة تعكّر صفاء مسيرة حياتهم الطاهرة التقية النقية العفية.

وكل هذا الكلام مُخالف للواقع ومُناقض للعقل. لكن هذه النغمة من شأنها أن تُدخل الطمأنينة فى القلوب وتجعل المجتمعات العربية الإسلامية تشعر بالأمان النفسى وبالثقة بالنفس وبراحة البال وتُخفف من عقدة الدونية التى نشعر بها تجاه الغرب المتقدم.

وأظن أن هذه العبارة الأخيرة ستثير غضب حراس العقيدة وتحملهم على أن يَكيلوا لشخصى الضعيف الاتهام بأن تلك العُقدة الدونية لا وجود لها إلا فى عقلى وضميرى. لكن الحقيقة أننى لا أشعر بهذه العقدة لأننى أعرف قيمة حضارتى ومناطق قوتها وضعفها كما أعرف حضارة

الغرب ومناطق ضعفها. أما هم فينوؤون تحت وطأة عقدة الدونية فى اللاوعى الجماعى المترسخ فى ضمائرهم، وهم يَخرجون منها عن طريق الأوهام والادّعاءات والخيالات والعَنتريات اللفظية فيعيشون فى عالم افتراضى اختلقوه من أساطير وأقاصيص الماضى وهم يُباهون ويُفاخرون ويَركبون أعلى خيولهم فى العَلن لكنهم فى الواقع يشعرون بعقدة النقص فى دواخل نفوسهم وهى تدفعهم إلى المزيد من التطرف الفكرى والحقد على العالم المتقدم.

وأنا أقرّ مع الكثيرين بأن الافتخار بالماضى المجيد من شأنه أن يلعب دورا أساسيا فى تماسُك المجتمعات العربية وتلاحمها وفى رفع معنويات الشعوب، لكنه إذا قام على غير أساس صحيح يكون ضرره بالَغا لأن ما بُنى على باطل فهو باطل. وأزعمُ أن هناك وجها آخر للحقيقة لا يمكن أن تتطور المجتمعات بدونه وهو النقد الذاتى ودراسة العيوب والنواقص من أجل مواجهتها والتغلب عليها وإعادة زرع بذور التقدم وازدهار العقول من خلال تلافى نواقص وأخطاء الماضى.

وهذا الجانب الآخر هو ما نحتاجه الآن. أما الجانب الأول وهو نَفخ الذات وتضخيم الصفات وتلوين الماضى بلون وَرْدى برّاق وإضفاء المساحيق على وقائع التاريخ وتزوير الحقائق لتلائم العالم الخيالى الذى يريدون إقناعنا به، فكلها أمور متوفرة لدينا بحمد الله بأكثر كثيرا مما نحتاج، وهى تساهم فى حالة الاكتفاء الذاتى الزائف والكسل العقلى والتراخى الفكرى والعزوف عن العمل والاتكال على أمجاد الماضى وكلها

ظواهر لا يمكن أن تخطئها العين، اللهم إلا عين مصابة بالعَمَى.

ولعل عظمة الحضارة الإسلامية هى أن الذين قامتْ على أكتافهم كانوا رجالا استلهموا من الدين قيما ومبادىء إيجابية تَحُضّ على التقدم والمساواة بين البشر وعلى التضحية بالنفس من أجل الآخرين.

لم يكونوا ملائكة هبطوا إلينا من السماء بل كانوا بشرا أثابوا وأخطأوا وارتكبوا الكبائر والصغائر كما تدل كتب السيرة والتراث، لكن عقيدتهم الإيمانية كانت أكبر من خطاياهم كما كانت المثل العليا التى يؤمنون بها تمْحو آثار زلّاتهم لأنهم كانوا مؤمنين بأنهم أصحاب رسالة سامية ترتفع فوق أخطاء الحياة اليومية وتَجَبّها، لأن الخطايا هى جزء من تكوين الإنسان ولا بد للغرائز أن تطفو فوق السطح أحيانا، لكن المهم عندهم كان أنهم قادرون على كبح جماح غرائزهم والسيطرة عليها بسرعة والتركيز على مهمتهم الأساسية وهى نشر رسالة الدين الجديد فى كل مكان.

وأُدَّعى أنه بفضل دِراستى وتَكوينى فإننى أعرف قيمة وفضل الحضارة العربية الإسلامية أكثر ممن يُزايدون ويَتفشخَرون ويُنمِّقون الكلمات ويُدبِّجون العبارات فأسهموا بذلك فى تخدير العقول جيلا بعد جيل وعملوا على إيهام الجميع بأن هناك ماض مثاليا عظيما قويما وكأن السلف كانوا يعيشون فى ربوع الجنة وفردوس النعيم وليس على كوكب الأرض، وهناك فى المقابل حاضر مخز وأليم، وهم يُرْجعون هذا التدهور إلى سبب واحد وهو أننا أدَرْنا ظهورنا لهذا الماضى وللدين والتَهَينا بالحياة الدنيا.

أعرف قيمة الحضارة العربية الإسلامية ربما أفضل من هؤلاء لأنى

نشـأت فـى منـزل يتغنّى فيه صـاحبُه ليـل نهار بالشـعر العربـى ويَفخر بالثقافة العربية وهو والدى الراحل محمد مفيد الشوباشـى صاحب كتابىّ "العرب والحضارة الأوروبية" (1961) و"رحلة الأدب العربى إلى أوربا" (1968) اللذين يُؤَصِّـل فيهما لدور الحضارة العربية الإسلامية فى إشعال فتيل النهضة الأوروبية.

وما أريده فى هذا الكتاب هو أن ألفت النظر إلى العيوب التى تفاقمتْ وتعاظمتْ مع عصور التدنّى الحضارى وتحوَّلت إلى هواجس تَنخُر فى العقل العربى. وأحبُ أن أطمئن القارىء الكريم بأن اهتمامى بهذه العيوب والنواقص ليس بدافع النبش فى الماضى وجلد الذات والتشكيك فى قيمة حضارتنا الماضية والتقليل من شأنها كما سوف يدَّعى البعض، وإنما لاقتناعى بأن التغاضى عن تلك العيوب ومحاولة التستّر عليها وطمْس معالمها هو سبب أساسى فى الكبوة التى نعيشها منذ قرون والتى لن نخرج منها إلا برصد ودراسة وإبراز الأسباب الحقيقية لزوال الأضواء عن حضارتنا منذ قرون طويلة وبالتركيز على كيفية التخلص من العقد المتراكمة والأفكار المسبقة وعادة إضفاء القدسية على حقائق هى بحكم طبيعتها قابلة للشك والمراجعة.

وهناك أسئلة حائرَة كانت سببا فى قلق واضطراب العقل العربى منذ منتصف القرن العشرين ولم يجد لها أحد إجابات شافية حتى الآن من أهمها: لماذا لا توجد ديمقراطية حقيقية واحدة فى العالم العربى؟ لماذا لا يوجد بحث علمى؟ لماذا لا يوجد مخترعون وعلماء على مستوى عالمى؟

لماذا نفشل فى إقامة المهرجانات والمؤتمرات وتستعين الدول العربية الغنية بالأجانب لتنظيمها؟ لماذا لا يأتمننا العالم على إقامة دورات أوليمبية ولماذا حصلت مصر على صفر عند التصويت على إقامة بطولة العالم فى كرة القدم عام 2010 وحصلت على هذا الشرف دولة أفريقيا هى جنوب أفريقيا؟

ومن ينتفض معترضا بأن دولة قطر سوف تضطلع بتنظيم بطولة العالم لكرة القدم عام 2022 فليعلم أنها لم تحظ بهذا الشرف إلا بعد أن تعهّدت بأن من سيتولى التنظيم هم من الأجانب وليس من أبناء العالم العربى لأن العالم لا يثق فينا ولا فى قدرتنا على الانضباط واحترام المواعيد والدقة والاتقان فى التنظيم. هذا إن تغاضينا عن اللغط الذى وقع حول ظروف الاقتراع داخل الاتحاد الدولى لكرة القدم.

ثم لماذا انهارت جامعات أكبر دولة عربية وهى مصر ولم تَعُد مُمَثلة فى أفضل خمسمائة جامعة فى العالم؟ لماذا لا يوجد مستشفى واحد يَطمئنّ فيه المريض على أنه سيلقى الرعاية المناسبة كما هو الحال فى مستشفيات العالم المتقدم؟ لماذا لا نثق فى أى سلعة مصنوعة فى بلادنا ونؤثر عليها السلع المستوردة من خارج العالم العربى الإسلامى؟

لماذا تعيش غالبية شعوبنا فى حالة من الفقر والحرمان؟ لماذا نعجز عن النهوض باقتصاد دولنا والاستثناء الوحيد هى الدول النفطية التى تَهبط عليها الثروات من السماء أو بمعنى أدق من الدول الغربية التى تشترى البترول ولا يبذل أهل هذه الدول النفطية أى مجهود للحصول على المال الوفير؟

لماذا أصبحنا نعيش عالة على الآخرين فى كل شىء ولا نستطيع أن نُنتج سلعا يحتاجها الناس؟ لماذا لم يخترع مصرى أو عربى شيئا مفيدا منذ مئات السنين باستثناء الذين عاشوا فى الغرب وتمتّعوا بإمكانياته العلمية والبَحْثية؟ لماذا لا يوجد فى العالم العربى مصنع لانتاج طائرة أو سيارة أو حتى عجلة؟

مئات الأسئلة لا يمكن أن نجدَ لها إجابات مقنعة إلا بالعودة إلى تاريخنا والتفتيش والتنقيب فى ماضينا البعيد لنعرف العيوب المتجذرة فى الشخصية العربية الإسلامية والتى تغلّ أيادينا وتعمى أبصارنا وتحجب عنا طريق التقدم بعد أن تسبَّبتْ فى انهيار حضارتنا.

وغرضى من هذا الكتاب ليس تحليل أسباب انهيار الحضارة العربية الإسلامية كما فعلَ إدوارد جيبون مع الحضارة الرومانية فى كتابه الشهير "تاريخ أفول وسقوط الأمبراطورية الرومانية". فأنا أترك للمؤرخين المحترفين تَتبّع نقاط الضعف التى أدّت إلى انهيار الدولة الإسلامية وتفسّخها.

غرضى يختلف تماما عن غرض المؤرخ الذى يَنكبّ على تفاصيل التاريخ ويترك للآخرين مهمة استخلاص النتائج. فغرضى هو محاولة كشف الستار عن الدور الضخم الذى تلعبه الجذور فى حاضرنا حيث لا زالت مثالب الماضى تُمثل حتى الآن العائق الرئيسى أمام أى تقدم فِعْلىٍّ لعالمنا العربى.

ولعل محْنة الحضارة الإسلامية هى أن الإسلام ظهر فى بدايته كدين للفقراء والمستضعفين. دين يسعى لنشر مبدأ العدالة وكَسْر شَوْكة الأقوياء

وجَبَروتهم فى مجتمع بدائى قبَلى كانت تتحكم فيه العشائر القوية والغنية وعلى رأسها بنو مخزوم وبنو عبد شمس فى مدينة مكة. لكن ما حدث هو أنه بعد سنوات قليلة من وفاة سيدنا محمد تحوَّل الدين إلى أداة لسيطرة الوجهاء وتسلط الأقوياء المتمثلين فى بنى أمية ثم بنى العباس وكل هؤلاء استغلوا الدين لتخدير الناس وتبرير المظالم ووضع أساس فكرى وعقائدى وروحانى يجعل عامة الشعب يتقبلون وجود مجتمع من السادة والعبيد أو من الأسياد والمحكومين المغلوبين على أمرهم.

وفى كل العصور وفى كل المجتمعات حتى القرن العشرين كان الدين هو الأداة الأساسية والوسيلة الناجعة التى استخدمها الحكّام لإبقاء شعوبهم فى حالة من الاستكانة والخنوع أملا فى حياة أفضل بالآخرة. وعندما أطلق المفكر والفيلسوف كارل ماركس مقولته الشهيرة بأن الدين أفيون الشعوب، هاجَ عليه رجال الدين وغالبية الناس فى كل مكان لأنهم لم يُدركوا مَقصده العميق المغزى، وهو أن الحكّام وأربابهم هم الذين جعلوا من الدين أفيونا ومخدرا لتهدئة الرعية وتغييب عقولهم من أجل تقبلهم للحرمان والضنك وصعوبة الحياة وكل المشكلات التى يعانون منها أملا فى ثواب الآخرة، بمعنى أن العذاب الذى يعانون منه لمدة ستين أو سبعين عاما وهى عمر الإنسان فى الأرض سوف يقابله حياة خالدة فى الجنة ينعمون فيها بكل ما لذ وطاب.

وقد أدرك أبو بكر وعمر وعليّ بن أبى طالب تلك الحقائق وقاوموا نزعة العصبيات والعائلات الكبيرة أو العشائر المهيمنة التى كانت تسعى

لفرض سيطرتها على المجتمع وعلى رأسها آنذاك بنو أمية. وظل الصراع مُحتَدما بين من يريدون التمسك بأساس الدين كوسيلة لتحقيق المساواة والعدالة بين الجميع من ناحية، وبين من يَرَوْن أن طبيعة الأمور أن تكون هناك أسرة وطبقة وجماعة تعلو فوق الجميع وتستأثر بالقوة والمال وتحظى بالامتيازات وتظل باقى الطبقات فى مستوى أدنى وتقوم على خدمة الطبقات العليا وتوفير احتياجاتها.

وشيئا فشيئا تحوَّلت دفة الدولة التى نشأت بفضل الإسلام من العدالة والمساواة إلى القوة والقهر والجبروت. وبسرعة كبيرة تكوَّنت طبقة جديدة من التجار والوسطاء وأصحاب الأراضى ساندت بكل قوتها وبإمكانياتها الجبارة هؤلاء السادة الجدد وهم بنو أمية الذين استطاعوا أن يُوفروا الأمن والأمان لأصحاب الامتيازات الجدد عن طريق البطش والقمع والترهيب، وتراكمت الثروات وصار هناك زواج بين السلطة والمال، وهو نفسه الذى ظهرَ طوال تاريخ الأمة العربية الإسلامية واستشرَى بصورة فجَّة فى نهاية عصر حسنى مبارك وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى ثورة 25 يناير 2011.

واستحكَمَت حلقات القوة وشدة البأس بعد وصول معاوية بن أبى سفيان إلى سُدَّة الحكم ووُضِعت المعادلة التى ظلت مهيمنة منذ ذلك الزمن وحتى الآن على المجتمعات العربية الإسلامية وهى معادلة القوة الباطشة للطبقة الحاكمة واستكانة أفراد الشعب وخضوعهم لأصحاب السلطان فى مقابل توفير الحد الأدنى من أسباب المعيشة واستتباب الأمن والأمان وكل ذلك بدعوى الدين وباسم الإسلام.

وأدعو من كل قلبي أن تكون ثورات ما سُمّى بالربيع العربي هي مسمار أخير في نعش هذه المنظومة السياسية.

وإذا كانت العقلية العربية التقليدية على خِصام دائم مع الزمن وترفض الاعتراف به فهي على خصام مع ركن آخر من أهم أركان الحضارات وهو العقل. فالعقلية التقليدية ترى في العقل عدوا لدوداً للدين تماما كما ظلت الكنيسة المسيحية تُحارب العقل والتفكير لمدة قرون طويلة وتَحكم على كتاب وعلماء مثل جاليليو بأقصى الأحكام عقابا لهم على استخدام العقل والمنطق.

وكان من نتيجة جذور التخلف التي وَرث العرب الكثير منها من العصر الجاهلي ومن ثقافة الصحراء بداية تآكل تدريجي في صرح الدولة الإسلامية. وفي رأيي أن بداية الانهيار الحضاري المَحْسوس كانت عندما انقلب الخليفة المتوكل في عام 848 على فكر المعتزلة كما سنرى في الفصل المُعنون "لهذا سحق المعتزلة"، لكن زخم الحضارة والرقي الفكري ظل به بعض التوهج حتى سقوط بغداد عام 1258 في يد المغول.

طبعا هناك لحظة أخرى مضيئة جاءت بعد المعتزلة بقرون وهي عصر النهضة التي ظهرت بشائرها في منتصف القرن التاسع عشر والتي نجح التيار التقليدي في إجهاضها أيضا مستغلا نكسة 1967 وفَشَل المشروع القومي في تحقيق طموحاته وأحلامه كما أوضحتُ في كتاب "تحطيم الأصنام" فعاد المشروع الإسلامي التقليدي على أنقاض المشروع القومي والوطني الذي بلغ أوجه على يد الزعيم جمال عبد الناصر.

وإذا كان لا يختلف أحد على أن الحضارة العربية الإسلامية وصلت إلى قمة الرُقىّ وأن لها إسهاما راسخا فى عملية تطور البشرية التى لا تعرف التوقف فإنه لا يختلف أحد كذلك على أن حضارتنا تعيش منذ قرون فى حالة من التقوقع والانحطاط والتردى برغم المحاولات المستمرة للنهضة. وهناك قوى ظاهرة أو خفية تجذب المجتمعات العربية الإسلامية إلى القاع وتلغى الجهود الرامية إلى الخروج من مستنقع التخلف. ويطيب لنا أن نتوهم دائما أن هذه القوى هى قوى خارجية أو خفية تريد الضرر للإسلام ونرفض الاعتراف بأن هذه القوى كامنة بداخلنا وراسخة فى تلافيف عقولنا وأن حرّاس العقيدة التقليديين ظلوا طوال القرون الماضية يُغَذون نزعة الانكماش على النفس وكراهية الآخرين والذعر من أى فكر جديد.

وحتى نتفق على تعريف الكلمات منذ البداية أيها القارىء العزيز فإن ما أعنيه بتعبير الفكر التقليدى الذى سوف أستخدمه كثيرا فى هذا الكتاب هو الفكر الاتّباعى والنَقلى والمحافظ الذى يقوم على الانغلاق والتمسك بالتقاليد المتوارثة كما هى ورفض كل فكر جديد. ولكى أقرِّب المعنى من الأذهان فسوف أعطى أمثلة مُشَخصَنة ترمز إلى هذا الفكر وهذا التيار وعلى رأسها الإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حامد الغزالى وابن تيمية ومئات من الشيوخ الذين كرّسوا حياتهم لإجهاض كل محاولات النهضة والتنوير ومن أبرزهم فى العصر الحديث الشيخ حسن البنا وأبو الأعلى المودودى والشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم بالمئات إن لم يكن بالآلاف.

أما الفكر المُعاكس لهم فهو فكر مُمْتدّ في جذور التاريخ الإسلامى من الإمام أبى حنيفة إلى الجاحظ وابن رشد وابن خلدون ثم فى العصر الحديث رفاعة الطهطاوى رائد النهضة والإمام محمد عبده وقاسم أمين والشيخ مصطفى عبد الرازق وطه حسين على سبيل المثال لا الحصر.

وأحبُّ أن أقول لعتاولة الفكر التقليدى وعناتيل التراث المُتجمِّد الذين يُشهِرون علينا أسلحة التكفير والتَخويف والتَخوين ويريدون إيهامنا بأنه لولاهم لضاع الإسلام وعَمَّ الكفر وانتَشَرت الضلالة في قلوب الناس إنه تَفوتُهم جميعا حقيقة دامغة وهى أن الأديان لديها من قوة التأثير الذاتية ما يجعلها تقاوم كل محاولات هدمِها من الداخل والخارج. وقد أثبَتَتْ كافة التجارب الماضية أن الإنسان فى حاجة إلى الدين أو إلى ملجأ روحانى يُنقذه من صقيع مادية الحياة.

وسوف أعطى أمثلة ملموسة تؤكد هذه الحقيقة.

واسمح لى أيها القارىء الكريم أن أبدأ بنماذج دولٍ حاربت الدين محاربة سافرة وكان القضاء على الدين والإيمان بالربّ هو سياسة الدولة المُعلنة وأقصد بذلك تجربة الاتحاد والسوفيتى والدول الشيوعية فى القرن العشرين. فقد قرَّر النظام الحاكم فى الاتحاد السوفيتى أن يُمارس المنع والحظر على الكنائس ورجال الدين وكان الجهر بالإيمان بالمسيحية يُعرّض صاحبه لمشكلات كبيرة مع الدولة، وكان المؤمنون يمارسون شعائر دينهم فى الخفاء خوفا من انكشاف أمرهم لأن أجهزة الأمن كانت تقتفى أثر المؤمنين وتعتبرهم خطرا على أمن الدولة. واتخذ ستالين العديد من الإجراءات

والقوانين التى من شأنها أن تمّحق الديانة المسيحية الأرثذوكسية وتزيلها تماما من الوجود فى بلاده.

فهل اختفت المسيحية وتلاشَت فى هذه الدول بعد أكثر من سبعين عاما من الحكم الشيوعى؟

الكل يعلم أنه فور انهيار الاتحاد السوفيتى عاد الدين للظهور من جديد بل ثبتَ أنه أصبح أكثر قوة وتجذرا فى نفوس الشعب من الدول المسيحية الأخرى ويعتبر الشعب الروسى وغيره من شعوب الدول التى كانت خاضعة للنظام الشيوعى أكثر إيمانا من شعوب الدول الأخرى التى كان متاحا لها حرية العبادة و التديّن.

مثال آخر لم يُمارَس فيه القمع والإرهاب هو أوروبا الغربية التى اكتفتْ بإفساح المجال لأعداء الدين من الكتاب والمفكرين والفلاسفة لتفنيد المسيحية والأديان عامة لدرجة أن فيلسوف ألمانيا الشهير نيتشه كتب قائلا "إن الله قد مات". ومنذ أكثر من مائة عام كانت الدعاية الغالبة فى أوروبا الغربية مضادة للدين وانزوى رجال الكنيسة وكادوا يختفون من وسائل الإعلام هناك و لم تعْطِهم الدولة ولا الصحافة ولا وسائل الإعلام الفرصة للتبشير ونشر الدين ومحاولة إقناع الناس به.

والسؤال هنا أيضا: هل اختفى الدين من أوروبا الغربية بعد أجيال وأجيال عاشت فى ظل دعاية معادية له وعدم تمكن رجال الكنيسة من الدفاع عنه؟

الإجابة هنا أيضا بالنفى. صحيح أن ممارسة الدين تراجعت لكن

استطلاعات الرأى تدل أن نحو نصف سكان دول أوروبا الغربية وقرابة 90 % من الأمريكيين لا زالوا مؤمنين.

أما المثال الثالث فسوف أعطيه من دولة إسلامية كبيرة كانت مقرًا للخلافة الإسلامية لأكْثر من أربعة قرون وهى تركيا. لكنه عندما انهارت الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أقدَم الزعيم مصطفى كمال أتاتورك على إلغاء الخلافة عام 1924 وكان الرجل مقتنعا بأن الوسيلة الوحيدة للتقدم هى ربط بلاده بقاطرة الحضارة الغربية وتقطيع أواصرها مع العرب والمسلمين حتى أنه بدَّل الحروف الهجائية العربية للغة التركية بالحروف اللاتينية.

ولأكثر من ستين عاما ظلت تركيا تمارس سياسة مُتحَفظة تجاه الدين وإن لم تكن تَجهر بعدائها للإسلام إلا أنها عَمَدَت إلى الفصل التام بين الدين والحياة العامة للناس وليس بين الدين والسياسة فقط. فهل اختفى الإسلام من تركيا بعد كل جهود أتاتورك وخلفائه من أجل تهميش الدين الإسلامى؟

ما حدث أن الإسلام عاد إلى الظهور فى تركيا بقوة وعادتْ المساجد إلى الامتلاء وفاز الحزب الدينى الإسلامى بالانتخابات أكثر من مرة فى الحقبة الأخيرة وصار هذا الحزب هو الذى يحكم تركيا منذ سنوات طويلة.

خلاصة القول أن الدين ليس فى حاجة إليكم يا حراس العقيدة ويا من تدَّعون أنه لولا جهودكم وتيقظكم وتربّصكم بالأعداء والكارهين

لتعرَّض الإسلام إلى الضعف والاضمحلال. أنتم عالة على الإسلام وتتعَيَّشون منه وتتمَسَّحون بأعتابه وتستفيدون منه ليل نهار وهو لا يستفيد منكم. الأديان باقية فى قلوب الناس طالما أن الإنسان يشعر بالحاجة إلى قوة أكبر منه تمنحه الأمان والطمأنينة والسكينة. والخطر الحقيقى على الإسلام هو التشنّج والأفكار المتطرفة والآراء المنغلقة والأساطير الغيبية التى تتفنّنون فى ترويجها وإقناع الناس بها.

الخطر الحقيقى على الإسلام هو الغلوّ والمزايدة واستعداء العالم علينا بإفشاء روح التعصب والانغلاق ونشر الأكاذيب المُلفقة والآراء التى تبث الكراهية والحقد فى القلوب. الخطر الحقيقى على الإسلام أن يُوَظَف الدين لصالح الطبقات الحاكمة والأغنياء والوجهاء وإقناع الشعوب بضرورة تقبل الأمر الواقع المرير على أنه إرادة السماء.

الخطر الحقيقى على الدين هو أنتُم وليس غيركم ياسادة.

ثقافة الأوهـام

من أبرز خصائص الشخصية العربية التى نرفض الاعتراف بها هى أن من تربَّى فى أحضان ثقافتنا عادة ما يَنزعِج من الحقيقة ويُؤثِر أن يَعيش فى ضبابات الأوهام والخرافات وهو عادة ما يَصُبّ جامَّ غضبه على من يُقدِّم له مرآة يرى فيها نفسه كما هى بالفعل.

وفى كتاب "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه" وتحديدا فى فصل بعنوان "غاية اللغة" أعطيتُ أمثلة تدلّ على أن الجزيرة العربية التى هى مَنبَع ثقافتنا كانت مُنغمسة حتى قمة الرأس فى أجواء الخرافات والخزعبلات وكان أهلها شَغوفين بالأساطير ويؤمنون بالكهانة والعَرافة والجن والعفاريب والأنصاب والأزلام وكانوا مقتنعين بوجود طائر يُدعى "الهَامَة" يُشبه البومة يخرج من رأس القتيل ويُطالب بالثار صائحا: "اِسقونى.. اِسقونى".

وعلى الرغم من الطفرة الحضارية وانتشار العلوم والفلسفة والمعارف فى الدولة الإسلامية إلا أن ثقافة الخرافة ظلت دائما مهيمنة على العقل العربى وظل الناس يؤمنون بأن هناك قوى خفية تُحَرك الأحداث من حولهم وبأن الجن والملائكة يلعبون دورا حاسما فى حياتهم، وهم يجدون لكل ظواهر الدنيا تفسيرات غيبية بعيدة عن المنطق والفكر العلمى.

وإذا قرأنا كتب التراث وكتب العلماء والأقدمين بل وغالبية المُحْدَثين سنجد أن مساحة الأوهام والشّطط الفكرى القائم على شطحات الخيال الجامح والابتعاد عن منهج الواقع أكبر كثيرا من أى تراث فكرى فى أية ثقافة أخرى. وسنكتشف أن المعجزات والأعاجيب وخوارق الطبيعة هى أكثر ما يَسحر الألباب وأن العامة والكثير من الخاصة يأخذونها مأخذ الجدّ ويُغضبهم أشد الغضب أن يَجترأ أحد على التشكيك فيها، ناهيك عن التهكم على سذاجتها.

ومع ظهور بشائر النهضة والتحديث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأ تأثير تجار الأوهام والأفاقين والمُشَعوذين يتراجَع وينحَسَر فى مصر بدرجة كبيرة. وعندما ظهرت صناعة السينما فى القرن العشرين كانت بقايا أو "فلول" الدجّالين مَثار تندّر وسخرية فى العديد من الأفلام الأبيض والأسود، وساهمت السينما فى كشف كهنة السحر ومُدّعى تفسير الأحلام وصناعة "الأعمال" والتعاويذ، والتنجيم وفتح المَنْدل وتحضير الأرواح وغير ذلك من أساليب النصب والاحتيال التى كان يقع البسطاء فى حبائلها أملا فى حل مشكلاتهم المُستعصية.

وقبل أن أسْتَرسل فى تحليل آثار ثقافة الأوهام على العقل العربى أحبّ

أن أؤكد على أن هناك فارقا جوهريا بين الأوهام والخيال. فالخيال عنصر من أهم عناصر التقدم وهو يجعل العقل البشرى ينطلق لاكتشاف حقائق لا يمكن أن يصل إليها إلا باختراق حاجز المنطق. أما الأوهام فهى تعتمد على نَفىّ العقل وإحلال العقيدة مكان الحقيقة.

وعلينا أن نقرّ بأن كافة الحضارات القديمة قامت على الأساطير والتفسيرات الخرافية لنشأة الكون ولظواهر الحياة وأولها الحضارة الفرعونية التى كانت تؤمن بأن الكون كان فى البداية عبارة عن محيط من الماء الأزلى يسمونه "نون" وانبثقت به جزيرة ظهر عليها الإله آتون الذى خلق الأرض والسماء، كما كانوا مُقتَنعين بأن مياه نهر النيل انبثقت من دموع الإلهة إيزيس حزنا على وفاة حبيبها أوزيريس.

كذلك الحضارة اليونانية كانت تؤمن بوجود آلهة تَقطن قمة جبل الأوليمب وأن هذه الآلهة لها أجساد بشرية وهى المسئولة عن تحديد مصائر البشر. وظلت الشعوب فى كل مكان تعيش فى حالة ذعر من الأشباح والأرواح الشرِّيرة، فكان سكان أوروبا فى القرون الوسطى يقومون برَبط المريض فى شجرة ويَنهالون على جسده ضربا بالسياط ظنّا منهم أن سبب المرض والحمّى هو وجود شيطان داخل جَسَد المريض ولن يخرج هذا الشيطان اللعين إلا إذا أوسعوه ضربا.

لكنه فى الوقت الذى انسَلخت فيه الثقافات الأخرى عن عالم الميثولوجيا والخرافات ودَلفت إلى دنيا العقل والواقع فإن العقلية العربية الإسلامية ظلت دائما على وفائها للأوهام والخزعبلات وظلت خاضعة

لندّاهة الخرافة والتُرّهات ولم تتبلور بداخلها حصانة نفسية ولا معنوية ضد المخادعة والشعوذة.

والإيمان بالخرافات يقترن دائما بكراهية غريزية للواقع إن لم يتوافق هذا الواقع مع رغبات الإنسان. والمجتمعات العربية الآن تُذكّرنى بقصة امرأة كانت فى غاية الجمال وكانت تنظر إلى وجهها فى المرآة فتَسعَد وتطرَب وينشرح قلبها. ومع مرور السنين وتقدّم العمر بدأت التجاعيد تشوّه وجهها الصَبُوح ونظرتْ إلى نفسها فى المرآة فأصيبت بإحباط شديد، لكنها لم تَضَع اللوم على تَقَلب الدهر ولم تتقبل فعل الزمن وألقت باللائمة على تلك المرآة المسكينة التى تعمَّدت تشويه وجهها وتُظهره الآن فى صورة قبيحة لا تتناسب مع ما تتمناه هذه المرأة لنفسها وما تتصور أنها لا زالت عليه.

فماذا صَنَعت هذه المرأة؟ لقد أمسكتْ بالمرآة وألقت بها على الأرض بكل قوتها ودَهَسَتها بأقدامها فتحطمت المرآة المظلومة التى لم يكن لها أى ذنب إلا أنها عكست الحقيقة كما هى دون تجميل أو تذويق.

والشعوب العربية تتصرف الآن مثل هذه المرأة التى ترفض أن ترى الواقع كما هو وتريد أن تُخرِس ألسنة من يُظهرون وجه الحقيقة. مع أن هذه المرأة كانت تستطيع أن تفعل الكثير لتغيير واقعها الجديد خاصة مع تقدم العلم والطب. فبإمكانها إجراء عمليات تجميل أو وضع المساحيق لإصلاح ما أفسده الزمن.

كذلك فالشعوب العربية تستطيع أن تفعل الكثير جدا إذا قَبلت أن

تكاشف نفسها وقبلتْ أن ترى الواقع كما هو دون تزيين أو تزييف. بل أقول أكثر من هذا. أقول إن الشعوب العربية لن تنهض ولن تعود إلى دائرة الضوء إلا إذا تقبّلت الحقيقة وواجهتها وإذا عرفت عيوبها وخطاياها وأن بداية العلاج من حالة التردى الحضارى يبدأ بالإذعان للواقع المرير.

والجُرم الذى ارتكبه كل رواد الفكر التقدمى غير التقليدى هو أنهم كانوا كالمرآة التى تَعْكِس الواقع فسعَى الجميع إلى تحطيمهم حتى لا يروا الحقيقة.

وربما كان لطبيعة الصحراء دور لا يُستهان به فى داء كراهية الحقيقية والالتجاء إلى الأوهام. فقد كانت الطبيعة فى الجزيرة العربية مُنَفرة بكل المقاييس وليس بسبب المناخ وحده وإنما لوجود صحراء جرداء قاحلة وجبال موحشة وَعِرة المسالك مليئة بالحيوانات المفترسة والزواحف الضارة ويعانى قاطنها من القيظ الذى يحرق جلده معظم شهور العام.

لذلك لم يكن غريبا أن تطأ أقدام الغزاة كل شبر من الأرض العربية من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب على مر التاريخ باستثناء واحد هو الجزيرة العربية. فقد أحجم الفرس واليونانيون والرومان والأتراك والانجليز والفرنسيين عن التوطن بها على الرغم من شهوتهم للغزو والسيطرة.

صحيح أن أموال البترول قد حولت بلدان الخليج إلى أماكن يَطيب العيش فيها ويتسابق الناس على العمل بها، لكن هذا الواقع الجديد عمره بضع عشرات من السنين.

وكانت وسيلة العربى التلقائية للهروب من واقعه هى أن يُطلق العنان لخياله إلى آفاق مختلفة بناء على ما يسمع عنه من رياض وحدائق فى البلاد الواقعة شمالى الجزيرة العربية. وعندما جاء القرآن بأوصاف للجنة بأن هناك جنات تجرى من تحتها الأنهار لم تكن بلاغة لغوية فحسب، لكنها كانت بلاغة فى المعنى لأنها تُقدّم لعرب الصحراء أجمل ما يحلمون به وما يسيل له لعابهم وما يُعوّضهم عن قسوة الواقع الذى يعيشون فيه.

وقد أدّت ثقافة الأوهام إلى وجود خلل فى العلاقة بين العلّة والمَعْلول بالعقل العربى.. فنحن لا نستخلص النتائج المنطقية من أى واقعة بل نُجهد عقولنا فى البحث عن تعليلات واهية ومُبَرِّرات تتوافق مع ما نريد أن نثبته بغض النظر عن الحقيقة والمنطق، وسأعطى مثالا بسيطا من الحياة اليومية لإثبات ذلك. فإذا سقط تلميذ فى الامتحان فإن السبب المنطقى الأول الذى يتبادر إلى ذهن أى إنسان من أى ثقافة غير عربية هو أنه لم يبذل الجهد الكافى فى المذاكرة وأنه قصَّر فى تحصيل الدروس.

أما عندنا فإن هذا التفسير هو آخر ما نفكر فيه. وسوف يتبادر إلى ذهن هذا التلميذ وأهله والمقربين منه أن الامتحان كان صعبا ومُعَقدا وجاء من خارج المقرر. أما التعليل الثانى فهو أن المُدرِّسْ يضطهده ولا يحبه، ولن يعدم أى منهم الأسباب آلتى تجعل المدرس يتعمد إسقاط التلميذ فى الامتحان. وهناك تفسير ثالث قد لا يَجهر به البعض لكنه شائع أكثر كثيرا مما نتصور وهو أن "الولد مَحسود" وأن الحَسَد مذكور فى القرآن وأنه هو السبب الحقيقى وراء سقوط الابن المسكين فى الامتحان.

وقِس على هذا ما يواجهه الناس من الفشل فى العمل أو فى الحياة الزوجية أو فى أى مشروع يُقدِمون عليه. فالغالبية العظمى ترفض التفسير المنطقى والموضوعى للفشل وتُحمِّله على شماعة مُبرِّرات واهية تقوم معظمها على الخرافات والأوهام ورفض مواجهة الحقيقة.

ومن يتأمل تاريخنا الفكرى والثقافى والاجتماعى يكتشف أنه يقوم على محاربة العقل وقمْعه وإخصائه ومكافحة كل جديد وافد من الخارج أو من الداخل لأن العقل بالنسبة لحراس التقاليد هو عدوّ الإيمان، والقيمة الوحيدة لعقل الإنسان فى نظرهم هو أن يَهْدى صاحبه إلى نور الإيمان وإلى الاستسلام لما خلفه السلف.

والمأساة التى نعيش فصولها منذ قرون هى أن الإنسان المصرى والعربى لا يكف عن الشكوى من مشكلات حياته اليومية والتباكى على الماضى الجميل لكنه يرفض مواجهة الأسباب الحقيقية لأخطائه وخطاياه ويعلل تخلفه بعناصر خارجة عن إرادته ويُعَلق أزماته على شماعة القدر والمَكتوب وإرادة السماء وعلى المؤامرات التى يَحيكها الأعداء من الداخل والخارج وكذلك من الحاسدين وأعداء الإسلام.

لعل من أبرز دلائل خضوع العقل العربى لسُلطان الأوهام والخيالات هو موضوع الأنساب. فعرب الجزيرة قد صَنَعوا لأنفسهم نظاما متكاملا يُعدّ شجرة مُتشعِّبة الجذور والفروع وتصور كل فريق أنه ينتمى فى الأصل إلى شخص واحد تنحدر منه القبيلة أو الشعب. وهذا الجَدّ المفترض أو المُتَخيَّل لم يره أحد من الأحياء ولا حتى من آبائهم أو أجدادهم لكن قصته

تواترت وتناقلتها الأجيال باللسان وهى تخضع لعمليات تطوير وتجميل وتذويق مع كل جيل.

ويُعلق أحمد أمين فى كتابه الرائع "فجر الإسلام" قائلا إنه سواء أن صَحَّت هذه الأنساب أو لم تصح فليس هذا هو المهم لكن المهم هو أن العرب اقتنعوا بها. وأقول إضافة إلى كلامه إن عرب الجزيرة أقنعوا أنفسهم بهذه الأنساب وأغلب الظن أن معظمها من نسج الخيال كما أن بعض الأسر الحالية فى مصر تَنسِج قصصا عن تاريخها وجَدّها "الباشا" حتى تصنع لنفسها هوية تستند إليها وتاريخا صحيحا أو وهميا ترتكز عليه لتأكيد شخصيتها وتَمَيّزها.

وكان الرسول يُدرك هَشاشة هذه الأنساب ويعلم أن من يُسمّون بالنسَّابة يتكسَّبون من تلك التجارة الرابحة فيُؤْثَر عنه أنه كان يقول "النسَّابون كذابون". ويبدو أن المتنبى قد وجد فى مصر رجلا نبطيا غريبا عن البلاد لكنه مع هذا متخصص فى أنساب العرب فقال متهكما فى إحدى قصائد هجائه لكافور متحدثا عن مصر:

بها نبطىٌّ مِن اهلِ السوادِ   يُعلّم أنسابَ أهلِ الفَلا

وقد أطلق العرب لخيالهم العنان وتخيّلوا لأنفسهم أصولا من أزمنة سحيقة ومن شعوب لم يثبت وجودها تاريخيا مثل جُرهم الأولى والعمالقة وعاد وثمود وغير ذلك.

ودون الدخول فى تفصيلات العرب البائدة والعارِبة والمُسْتَعربة فقد آمن عرب الجزيرة بأن هناك رجلين يَرجع إليهما نَسَب كل واحد من أبناء القبائل التى تعيش فى الجزيرة العربية، وهو تصور يتناقض مع كل

ما عرفه العلم من تشعب الأصول والفروع وحركة الهجرة والتنقل لكل الشعوب والتجمّعات البشرية فى العالم منذ فجر التاريخ. وقد تكون هناك بالفعل مجموعة محدودة من الرجال والنساء هم أصل العرب لكنه من رابع المستحيلات أن يتوصّل أحد إلى تحديد هويتهم بطريقة علمية.

والعقيدة التى هَيْمنت على عرب الجزيرة أن كل عرب الجنوب ينحدرون من قَحْطان وكل عرب الشمال من عَدْنان، واستراحوا لذلك تماما، مع أنها بالتأكيد شخصيات وهمية أو مُرَكبة بمعنى أنها نتيجة عملية تركيب قصص وحكايات عن عدة أشخاص لعبوا دورا فى حياة عرب الجنوب والشمال على مرّ القرون التى سبقت الرسالة مثل كل أبطال الروايات التى يخلقها خيال الكاتب. فشخصيات الرواية قد تكون مُسْتوحاة من شخصية يعرفها المؤلف لكنه يضيف إليها دائما من شخصيات أخرى بعض الصفات والعيوب حتى تكتسب فى النهاية عمقا وسُمْكا وأبعادا لا تتوفر فى الشخصية الأصلية وحدها.

وبناءُ شجرةٍ للأنساب ترجع إلى عشرات الأجيال هو أمر يرفضه العقل والمنطق وغير موجود فى أية حضارة أخرى لأنه لم تكن توجد فى الماضى أية وسيلة لمعرفة التسلسل الإنجابى لأى إنسان ولم يكن هناك سجل مدنى ولا شهادات ميلاد بل لم تكن فى الجزيرة العربية وثائق مكتوبة عن أى شيء اللهمّ إلا أمور نادرة عادة ما تتعلق بالتجارة. وقد أوضحت فى كتابى "تحطيم الأصنام" أن أحد ركائز الثقافة العربية أنها كانت ثقافة سَمْعية أذنيَّة شفهية ولم يبدأ الاهتمام بالكتابة والتدوين بصورة جدِّية إلا بعد نحو قرنين من وفاة الرسول.

وإذا نظرنا إلى عصرنا الحالى حيث توجد وثائق رسمية تثبت النسب والسلالة فإنه ليس بوسع مصرى أن يَرجع إلى أكثر من أربعة أو خمسة أجيال من أجداده إلا فى حالات نادرة ومن يدًّعى غير ذلك فإن ادعاءه يدخل فى دائرة الاحتمالات والتخمين والقصص المتوارثة والأساطير العائلية.

ولعل من أبرز الأسر المعروفة فى تاريخ مصر الحديث هى أسرة "محمد على" التى حكمتْ البلاد من 1805 إلى 1952 بل وحتى 1953 عند إعلان الجمهورية، وكان آخر ممثليها الأمير أحمد فؤاد ابن الملك فاروق. لكن حتى الأمير أحمد فؤاد لا يستطيع أن يُثبت نَسَبه لأكثر من ستة أو سبعة أجيال. فهو أحمد بن فاروق بن فؤاد بن الخديو اسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا بن إبراهيم أغا ويقال إن هذا الأخير هو ابن على أغا، لكن الأمير أحمد فؤاد لا يستطيع أن يذهب إلى أكثر من ذلك، فما بالنا بمن لا ينتمى إلى أسرة ملكية حاكمة.

ومما يثير تعجّبى أن هناك الآن آلاف من المصريين وربما عشرات الآلاف يؤكدون بثقة شديدة وبزهو وافتخار أنهم من الأشراف أى أنهم من النَسْل المباشر للرسول عن طريق الحسين بن علىّ. وهناك جهات تستخرج لهم شهادات "موثقة" و"مختومة" بالتسلسل الذى يعود بالزمن إلى 1400 عام تشهد بأن جدّهم الأكبر هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وأنا لا أودّ أن أعَكر صفو هؤلاء وأهزّ ثقتهم بأنهم من أحفاد الرسول المباشرين ومن نَسْل فاطمة الزهراء غير المنقطع، وأفضّل أن أتركهم فى

الوهم الجميل الذى يعيشون فيه. لكنى أستطيع أن أجزم بأنه لا يوجد إنسان يعيش الآن على وجه الأرض فى مقدوره أن يُرجع نسبه إلىٰ الرسول ولا إلى فاطمة الزهراء ولا حتى إلى أى واحد من الصحابة ولا إلى أى واحد من التابعين.

ومعلوم أن النبى الكريم لم يكن له أحفاد إلا من ابنته فاطمة حيث توفى حفيداه من رُقيّة دون أن يُنجبا أطفالا. ومعروف أن غالبية آل البيت قد قتلوا على يد أعدائهم وخاصة من الأمويين الذين كانوا يعتبرونهم أخطر منافسيهم على التربع على عرش الخلافة نظرا لأن كثيرا من العرب كانوا يعتبرون أحفاد النبى أجدَر بالخلافة من أحفاد أبى سفيان الذى حارب الإسلام طويلا و لم يستسلم للأمر الواقع إلا فى نهاية حياته وبعد أن دخل الرسول مكة المكرمة فى 11 يناير عام 630 ميلاديا.

ومعروف أن معظم أحفاد الرسول وسلالته قد قتلوا غيلة فى كربلاء وعلى رأسهم الحسين بن علىّ وابن فاطمة بنت الرسول، و لم يَنجُ من الذكور سوى علىّ بن الحسين الذى كان طفلا لكن الذى شَفع له لم يكن حداثة سنه حيث قتل أطفال كثيرون فى كربلاء وإنما مرضه، وقد تصَدّت عمته زينب بشجاعة فائقة من أجل إنقاذ حياته حسب الروايات.

ولعل أكثر من تابعوا سلالة الرسول هم الشيعة لاقتناعهم الراسخ بأن آل البيت هم الأحقّ بولاية الأمة وحكمها. وهناك فِرَق من الشيعة تَقف عند الإمام الخامس وآخرون عند السابع وآخرون وهم الغالبية عند الإمام الثانى عشر المهدى ويُطلق عليهم لهذا السبب الاثنا عَشريَّة.

لكن حتى الشيعة لم يستطيعوا رغم حرِصِهم المُقَدّس على اقتفاء أثر

أحفاد الرسول أن يعرفوا أكثر من ذلك بصورة مؤكدة وتحدّثوا عن الإمام الغائب. ولو كان أحد من سلالة عليّ بن أبي طالب وفاطمة على قيد الحياة اليوم فهل كان الشيعة سيتركون هذا الأمر أم كانوا سيعتبرونه إمامهم وزعيمهم وسيّدهم؟ لو كانت الشهادات التي يحملها بزهوّ واعتزاز آلاف المصريين بأنهم من سلالة فاطمة صحيحة لقام الشيعة بتنصيب واحد من هؤلاء خليفة للمسلمين.

ومن يقول إن الخلافة كانت معيارا مؤكدا أهم من شهادات الميلاد والسجل المدني وبالتالي فإن العبَّاسيين مَرْصودون من خلال توليهم الخلافة أروِي القصة التالية التي تؤكد محورية الأوهام وخصُوبَة الخيال في الثقافة العربية. فعندما دخل المغول بغداد عام 1258 بقيادة هولاكو قاموا بعمليات ذبح مُروِّعة لسكان المدينة التي أنشأها الخليفة المنصور قبل ذلك بنحو 500 عام وشهدتْ عصورِ ازدهار الدولة العباسية. وبرغم أن الخليفة كان في ذلك العصر مجرد دُمية تُحرّكها السلاطين إلا أنه كان لا يزال رمزا لسلطة الدولة الإسلامية والخلافة ولهذا السبب أمر هولاكو بإعدام الخليفة المسكين وكان اسمه المستعصم بالله وكان بالفعل من السلالة المباشرة للعباس عم الرسول.

وبعد سقوط بغداد بفترة اختلف في تحديدها المؤرخون العرب كما اختلفوا في كل شيء تقريبا، وإن كان السيوطي يؤكد في "تاريخ الخلفاء" أن الأمة ظلت ثلاث سنين بدون خليفة، ظَهَرَ بمصر رجل يُدعَى أبو القاسم أحمد وادّعى أنه من أسرة الخليفة المقتول وأنه وريثه الوحيد.

ولا شك أن وجود هذا الرجل أسعَدَ المماليك الذين كانوا يَحكمون مصر آنذاك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس. فهو سوف يمنحهم الغطاء الشرعى الدينى لدولتهم ويجعل من مصر قلب الخلافة. لكنه لم تكن هناك أية طريقة للتأكد من صِحّة كلام الرجل وكان من الممكن تماما أن يكون أفاقا وأن يكون مجرد أحد المقربين للخليفة أو أحد خدمه أو واحد من أفراد حاشيته.

فماذا فعل المماليك للتأكد من أن هذا الرجل من آل العباسيين وأنه من الممكن أن يُنصَّب خليفة من مصر بشرط طبعا أن يكون مجرد صورة ورَمْز لا أكثر؟ ما فعله الظاهر بيبرس هو أنه جاء ببعض العلماء وطلبَ منهم أن يَطرحوا على هذا الرجل المجهول بعض الأسئلة ويقوموا بعملية "امتحان" فى الشريعة وفى الأسرة العباسية وغير ذلك من المعلومات التى من المفترض أن يكون أبناء العباسيين ملمّين بها. وبعد جلسة الاستماع قرر العلماء أن هذا الرجل من أبناء العباسيين بالفعل.

والموضوع فى الواقع عملية "تهريج" لأن المعلومات التى سألوه فيها من الممكن أن تكون متاحة لأى شخص من حاشية الخليفة العباسى المقتول أو من المحيطين إليه.

وما كان من الظاهر بيبرس والمماليك إلا أن نصَّبوا هذا الرجل خليفة على المسلمين على أساس أنه استمرار للحكم العباسى. وكان قدوم الخليفة العباسى إلى مصر واستقراره بها حُلم قديم بدأ يُداعب أحمد بن طولون وهو أول من استقل بمصر عام 877 وحاول أن يقدّم الإغراءات للخليفة

العباسى آنذاك لكى يترك بغداد ويقيم بمصر حتى تصبح مَقرًا للخلافة وسعى من بعده الإخشيد لتحقيق نفس الهدف، لكن هذا الحلم لم يتحقق كما أوردتُ إلا فى عهد الظاهر بيبرس بعد سقوط بغداد وقتل الخليفة.

وأنا لا أستطيع أن أجْزِم بالطبع أن هذا الرجل لم يكن من الأسرة العباسية لكنه لا يوجد أى دليل جاد على ذلك، ومع هذا فقد تقبّل المصريون والمسلمون هذا الأمر لأن عقليتهم الجماعية لا تقوم على تَحَرّى الدقة والبحث عن الواقع ولأن ثقافتهم هى ثقافة "العقيدة فوق الحقيقة".

وقد ظل أحفاد هذا الرجل يُقيمون بمصر ويَنعَمون بلقب الخليفة إلى أن جاء العثمانيون بقيادة سليم الأول عام 1517 وغزوا مصر وقاموا بنقل الخليفة العباسى الذى كان يُدعى المتوكل إلى استنبول وعاد الرجل بعد هذا إلى القاهرة ومات بها ولا يُعرف له أولاد ولا سلالة فانتهى نسب بنى العباس نهائيا.

وقد ثبَتَ من كل الروايات التاريخية أن الإنسان مَفطور فى الأصل على عشق الخرافات والمعجزات. وسوف أعطى مثالا معروفا من حضارة أخرى هى الحضارة الأوروبية التى تَغَذت طويلا على الخزعبلات حتى جاء عصر النهضة ثم عصر التنوير فتخلصوا إلى حد كبير من تَسَلط الأوهام على عقولهم.

وتعود القصة إلى عام 1098 عندما دخل الفرسان الصليبيون مدينة أنطاكية بعد حصار طويل وذلك خلال الحملة الصليبية الأولى. لكنه بعد أن أحكَموا سيطرتهم على المدينة فوجئوا بجيش تركىّ جاء لنجدة

أنطاكية وقام هذا الجيش بحصار المدينة. وبدأ الفرسان الصليبيون يعانون من الحصار وبدأت المؤن تنقص شيئا فشيئا فانهارت معنويات الغزاة الصليبيين وكادوا أن يستسلموا لليأس.

وهنا ظهر قس فرنسي يدعى بيير بارتولومى ابتَدَع حيلة جُهنّمية أدَّت إلى إخراجهم من مِحْنتهم. فقد استيقظ فى يوم صائحا أن أحد حواريى السيد المسيح قد زاره فى المنام وأكد له أن الرُمح المُقدَّس موجود داخل أسوار أنطاكية وأنه لو نجح فى إيجاده فإن النصر سيكون من نصيب فرسان الصليب.

والرُمح المقدس هو الرمح الذى كان يؤمن المسيحيون أنه اخترق جسد المسيح وهو على الصليب فى القدس وقد اختفى منذ فترة طويلة و لم يعُد له أثر. واقتحم بيير بارتولومى كنيسة صغيرة بالمدينة كان سكان أنطاكية المسيحيون يستخدمونها للصلاة وأخذ يَحفر ويُقلّب فى الأحجار بمعاونة بعض مريديه وكأنه يبحث عن الرمح المقدس كما أوحَى له الحوارى فى المنام.

بعد ساعات من البحث خرج القِسّ من الكنيسة وهو يُلوِّح برمح يرفعه بين يديه مُهَللا وصائحا بأنه وجد الرمح المقدس كما وعده الحوارى فى المنام.

وعلى الفور انقلبت الحالة المعنوية للفرسان الصليبيين من اليأس إلى الأمل ومن الإحباط إلى الاستبشار ودَبّت فى قلوبهم حالة من الحمّى الحماسية لاقتناعهم بأن هذا الرمح هو إشارة من السماء بأنهم سوف ينتصرون على الجيش التركى المسلم الذى يحاصرهم.

وفى غمرة الحماس فتحَت أبواب المدينة وخرج الجيش الصليبى لملاقاة الأتراك. وفى الطريق أخذ برتولومى وغيره من القسيسين يَصيحون بأنهم يرون مئات الفرسان يرتدون الملابس البيضاء الفضفاضة وأن هؤلاء هم جيشٌ من الملائكة أرسلهم الرب لمعاونتهم فى المعركة ضد الكفار المسلمين فزاد ذلك من تَحْفيز الفرسان الصليبيين وعدوانيتهم إزاء أعدائهم.

وانتصر منطق "العقيدة فوق الحقيقة" وتسلح جنود الصليبيين بقوة خَفيّة جبارة نابعة من إيمانهم بأن الربّ والمسيح معهم. ولم يَدُم القتال طويلا حيث أصيب الجيش التركى بالذهول التام أمام عزيمة الصليبيين وبركان الحماسة الذى تفجر بداخلهم وسرعان ما تشتّتَ الجيش التركى المسلم وفرّ من أرض المعركة.

وقد اتضح بعد ذلك أن القسّ كان قد وضع الرمح بنفسه فى حُفرة قبل أن يبدأ البحث عنه واعترف بأن مَقصِده كان نبيلا حيث كان هدفه هو رَفع الروح المعنوية للجنود.

وتؤكد هذه الرواية التى تناقلتها كتب التاريخ الأوروبية الدور الرهيب الذى تلعبه الخرافة فى حياة الناس وكيف أنها قادرة على تغيير مصير الإنسان إذا آمن بها حتى وإن كانت خدعة من أحد القساوسة. ولا شك أن تاريخ الإنسانية وخاصة تاريخ الحروب مرتبط ارتباطا كبيرا بالأساطير والخرافات التى تؤجِّج حماسة المحاربين وتُلهب مشاعرهم وتضاعف من شجاعتهم وإقدامهم على القتال.

والحقيقة التى نرفض التسليم بها هى أن ثقافتنا لا زالت تَقتاتُ على الأوهام ولا زالت تُسيطر عليها الخرافات والخزعبلات ولا زال أبناؤها يُمَنّون النفس بالفردوس المفقود. وحراس المعبد يُدركون ذلك تمام الإدراك فيلعبون على هذا الوتر ويتلاعبون بمشاعر الناس ويُلهبون خيالهم بقصص وهمية من أجل الهيمنة على عقولهم ودفعهم فى الاتجاه الذى يريدونه أو الذى يريده الحكام وأصحاب المال والجاه.

وبالتأكيد أن بونابارت عندما قام بغزو مصر على رأس الحملة الفرنسية عام 1798 كان مدركا تمام الإدراك أن ثقافة الأوهام تلعب دورا أساسيا فى قناعات المصريين ومواقفهم فلعَبَ على هذا الوتر منذ اليوم الأول. ولأنه قرأ الشخصية المصرية و"ذاكرها" وسعى للتعرف على مفاتيحها وخباياها فقد كان يُوهِم المصريين الذين يتصل بهم ومعظمهم كانوا من أعضاء الدووايين التى أنشأها خلال ولايته بأنه قادر على معرفة ما يدور داخل عقولهم وأنه لا تَخفى عليه خافية وكأنه مكشوف عنه الحجاب. ولا شك أنه علِمَ أن من يسيطرون على عقول الناس فى مصر يدَّعون مثل هذه القدرات وهو أمر لم يتغير كثيرا منذ قرون ولذلك فهذا هو السبيل للسيطرة على الناس فى مصر.

وفى نهاية القرن العشرين وبداية الواحد والعشرين اتّبع معظم الأفاقين الذين هيْمَنوا على عقول الناس وكانوا من نجوم الفضائيات نفس الأسلوب وصنعوا نفس الأمر وأوهموا البسطاء وغير البسطاء بأن لديهم ملكات خاصة واتصالات علوية بالسماء فخضعت لهم الغالبية وظلت السلطة

السياسية تستخدم هؤلاء الوسطاء لتخدير الشعب ولا زالت تصنع ذلك حتى بعد ثورة 25 يناير.

وهناك عشرات العيوب التى أسْهَم الخضوع للأوهام والخرافات فى ترسيخها وتثبيتها فى قلب الشخصية العربية. وسأحاول هنا أن ألقى الضوء على داء نعرفه ونشكو منه ويقع فيه غالبيتنا مرات عديدة يوميا وهو داء الكِذب الذى نتصور أنه قَدَرٌ مَكتوب وآفة هابطة من السماء ولا نفكر فى جذوره التراثية العميقة.

ويُعدّ الكذب اليوم جزءًا لا يتجزأ من الشخصية المصرية والعربية عامة وصار مع الوقت قاعدة أساسية للتعامل بين الناس: فمن يَتحَدث يلجأ إليه لتحقيق مَصلحة بل وكثيرا ما يكذب بغير مصلحة. ومن يَستَمِع يَشُكّ فى كل كلمة تخرج من فَم المُتحدّث ويُقَلّب الكلمات ويُحَمّلها على معانى مختلفة وعادة ما يُفكر فى كافة الاحتمالات باستثناء احتمال واحد وهو أن يكون المُتحدث صادقا فيما يقول.

وكما يحدث مع باقى العيوب الصارخة فى شخصيتنا فإننا نبحث لأنفسنا عن تَعليلات وتَخريجات وتفاسير تهدف إلى تبرير الكذب وإرجاعه دائما إلى دوافع إيجابية تساعد مَن يُقدم عليه على أن يكون مرتاح الضمير وأن يُقنع نفسه بأنه لا يَكذب وبأنه لا يُغضب الله.

وأتفق معك أيها القارىء الكريم أن للكذب أحيانا دوافع تنبع من خصال حميدة فى الشخصية المصرية والعربية عامة مثل الحياء والرغبة فى المجاملة حيث أن الصراحة كثيرا ما تكون مُؤلمة مثل أن تقول لسيدة مُسنّة: انت امرأة عجوز.

ومنها أيضا دافع الرحمة أو الشفقة مثل من يعرف مريضا يُجمع الأطباء على أن حالته مَيؤوس منها ويُضطر أن يُطمئِن هذا المريض فيؤكد له كَذِبا أن حالته طيبة. وقد مَرَرت بهذه التجربة أكثر من مرة خلال إقامتي في باريس لكن المرة التي لا أنساها كانت في بداية عام 1990 عندما أخبرني الطبيب المُعالج للدكتور لويس عوض في فرنسا بإنه مُصاب بورم خبيث وأنه لم يعد أمامه سوى ثلاثة أشهر فقط وأوصاني بإخفاء هذه الحقيقة عنه، فكنت أقول له كلما كان يُلِحّ في السؤال عن حالته: "لا تقلق يادكتور لويس، فقد قال الطبيب أنك مصاب بالتهاب حاد وأن ذلك قد يُسبِّب لك آلاما شديدة".

ورغم أن داء الكذب له مُسبِّبات مُتعدِّدَة أخرى منها الدفاع عن النفس والخوف من عاقبة الإفصاح عن الحقيقة في مجتمعات لا تَرحَم الضعيف إلا أن من يتعَمَّق في الموضوع يَتّضِح له أن الكذب تراث عربي راسخ له منابع متعددة في الثقافة الصحراوية وسوف أكتفي هنا بالرجوع إلى ثلاثة منابع نعرفها جميعا لكننا عادة ما لا نربطها بآفة الكذب.

أول هذه المنابع وربما أهمّها هو "التَقِيّة" وهي كلمة يُرَوِّج البعض أنها تخصّ الشيعة وحدهم مع أنها في الحَقيقة كانت ولا زالت شائعة في ثقافتنا العربية الإسلامية العامة. والتقية في الأصل هي أن تَعْمَد إلى إخفاء الحقيقة وإلى الجَهر بعكسها من أجل اتقاء شرّ أعداء الإسلام أو من أجل نُصْرة قضية الدين أو للحفاظ على حياة المسلم.

وهناك أكثر من قصة معروفة في بداية الدعوة يستشهد بها البعض

لإضفاء صِبْغة من الحلال على التقية لعل أشهرها قصة الصَحابى عَمَّار بن ياسر الذى تعرَّض لبطش المُشركين ومات أبواه تحت وطأة التعذيب، فاضطر اضطرارا أن يَذكر الرسول والإسلام بالسوء وآلهة قريش بالخير. ولما ذهبَ إلى الرسول وهو نادم أشدَّ الندم وخائف من العقاب لم يكتفِ سيدنا محمد بأن واساه وأقرَّه على ما فعل بل زاد على ذلك قائلا له: "إن عادوا عُدْ".

كما أن هناك مواقف أخرى معروفة من الممكن الرجوع إليها للتأكد من اقتناع الأوّلين بشرعية التقية لكنه ليس هناك مجال لسردها هنا.

ومن الواضح للعاقل أن تلك المواقف لا يمكن القياس عليها لأنها كانت تخص الدعوة فى بداية عهدها وكانت مواجهة المُشرِكين تتطلب هذا النوع من الحماية. لكن البعض اعتبرها أو أَحَبَّ أن يعتبرها رُخصة شرعية وإجازة معنوية للمداراة والكذب والمراوغة تحقيقا لمصالح شخصية أو فئوية.

المنبع الثانى هو "المعاريض" وهى كلمة قديمة مُتداوَلة فى الثقافة العربية ومعناها استخدام كلمة يَعرف مَن ينطق بها مُقدّما أن المستمع سوف يفهمها على نحو مختلف. فإذا قام شخص من أجل مصلحة ما بتقديم آخر لا يَمتّ إليه بصلة قرابة على أنه شقيقه قائلا: "أقسمُ أن هذا أخى"، فأول ما يتبادر إلى ذهنك أيها القارىء الكريم أنه كاذب. لكن هذا الرجل لا يعتبر نفسه كاذبا لأنه يقول فى نفسه إن الآخر هو "أخوه فى الإسلام" عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وبعد ثورة 25 يناير كان بعض أنصار التيار الديني يُعلنون في وسائل الإعلام أنهم مع "الدولة المَدَنية" مع أنهم ضدها على خط مستقيم، لكنهم يَقصِدون دولة "المدينة" التي أنشأها سيدنا محمد في السنوات العشر الأخيرة من حياته، أو دولة مدنية بمعنى أنها ليست عسكرية، مع أنهم يعلمون تماما أن من يستمع إليهم سَيَفهم هذا التعبير كما يفهمه عامة الناس يعني دولة غير دينية.

وهناك حديث غير مَوثوق فيه يقول: "إن في المعاريض لَمَندُوحة عن الكذب". وأنا شخصيا أشك كثيرا في صحة هذا الحديث. ولو كان صحيحا فأطالب عالما دينيا أن يشرح لنا مغزاه والظروف التي قيل فيها.

وواضح أن المعاريض هي لعب بالكلام يتصور صاحبه أنه لا يُغضب الله وأنه لا يقول إلا الحق وأنه ليس مسئولا إن كان الطرف الآخر قد فَهم كلامه على نحو مختلف.

أما الحجة الثالثة التي تُعتبر تصريحا رسميا بالكذب فهي "التورية". والتورية في الأدب هي لون من ألوان البديع، لكنها من خلال التلاعب بالمعاني والألفاظ تُعطي الحق في إخفاء الحقيقة إن كانت ضارة أو مؤلمة. لكن المشكلة هي أن الناس استخدمت هذه الرخصة أسوأ استخدام وأصبحت المخاتلة وإخفاء الحقيقة جزء من الشخصية الجماعية.

وعندما يقف الشاهد أمام ساحة القضاء في الدول المتقدمة يؤدِّي قَسَما أمام القاضي قبل الإدلاء بشهادته قائلا: "أقسم أن أقول الحق وكل الحق ولا شيء غير الحق".

أما فى محاكمنا فنكتفى بأن يقول الشاهد: "والله العظيم أشهد بالحق" مع أن هذه العبارة تفتح الباب للكذب أو على الأقل لعدم تقديم الحقيقة الكاملة الواضحة الجَليّة التى تُعطى للقاضى كافة عناصر الحكم فى القضية المعروضة عليه. فمن الوارد جدا أن تكون كل كلمة يتفوه بها الشاهد حقا ومع ذلك فهو يُخفى حقائق أخرى يَعلمها من شأنها أن تلقى ضوءا مختلفا على شهادته.

فكلمة "كل الحق" فى شهادة المحاكم الغربية وغيرها من الدول المتقدمة تُلزم الشاهد على أن يقول كل الحقيقة التى يعرفها ولا يَقتطِع منها ما قد يُغيّر من جوهرها. وقد رَوَى لى أحد القضاة أن تاجرا ثريا مَثل أمامه وكان متهما بأنه لم يُسَدد الدَيْن الذى عليه لتاجر آخر، وأقسم الرجل أنه سدّد الدَيْن، وشعر القاضى أنه صادق فى قَسَمه ثم اتضح له بعد ذلك أنه قد سدد بالفعل، لكنه لم يسدد سوى نصف المبلغ. فقد قال ذلك التاجر الحقيقة لكنه قال نصف الحقيقة التى تنسف الحقيقة الموضوعية الكاملة وهى مثال حىّ وملموس للتورية.

وبالممارسة جيلا بعد جيل أصبح الكذب فنا رفيعا له أصول وقواعد وبروتوكول غير مكتوب لكنه يقوم على المحاور الثلاثة التى ذكرتها وهى التقية والمعاريض والتورية.

والمشكلة أن الذين يمارسون فنّ الكذب على أساس هذه الحُجَج الثلاث لا يعترفون بأنهم كاذبون بل يعتبرون أنهم يدرءون الشرور من خلال إخفاء أو اجتزاء الحقائق ويتصورون أن المُداراة هى تجميل للحقيقة وللواقع وليست كذبا ويتعللون بتعبير "الكِدبة البيضا". والمشكلة الأخطر

أن المجتمع ككل لا يعتبرهم كاذبين فى غالبية الأحيان ويتسامح مع الكاذب إلى أبعد الحدود.

ولأننى عملت بالصحافة طوال حياتى وأتيحَ لى أن أتابع الصحف المحلية والعربية والعالمية بصفة يومية لما يزيد عن أربعين عاما أستطيع أن أؤكد أن "الفبركة" الصحفية في مصر والعالم العربى هى الطابع الغالب وأن الأخبار غير الدقيقة وغير المُوَثقة هى السمة المهيمنة ومن الصعب جدا الوثوق فى أى خبر يُنشر إلا بعد التحقق منه.

والصحفى عندنا يُطلق العنان لخياله دون حدود من أجل جذب اهتمام القارىء وبغض النظر عن حقيقة ما ينشره من أخبار. والمشكلة الأكبر أن الغالبية العظمى من القراء تتقبل بالرضا هذا النوع من التلفيق والمبالغات حتى أصبح أمرا عاديا ومقبولا بل ومطلوبا من القارىء. وهناك يوميا عشرات بل مئات من الأخطاء الفادحة فى المعلومات بكافة الصحف المصرية لكن أحدا لا يُحاسِب ولا يُراقب لأن ثقافة الأوهام مهيمنة على الجميع.

وطالما أن الإنسان العربى يخلط بين الوهم والواقع ويُفضّل الخيالات على الحقيقة ويُؤثر الخرافة على العِلم ويُعْلى الأساطير على المعرفة ويرفع الأوهام فوق المعارف فإن طريق التقدم سيظل منغلقا فى وجوهِنا.

للخلف درّ

هناك تعبير عسكرى معروف عندما يُراد للكتيبة أو المجموعة العسكرية أن تَعود أدراجها للوراء وهو "للخلف درّ" فَيَسْتدير الجميع لدى سَماع هذا النداء ويسيرون فى الاتجاه المعاكس ليعودوا من حيث أتوا. وفى تصورى أن هذا التعبير ينطبق على ثقافتنا العربية الإسلامية من بعد حقبة الزخم الأولى.

ومنذ أن سَقطَتْ حضارتنا فى هوّة التخلف فإنه فى كل مكان وفى كل زمان ظهرت فيهما حركة إصلاحية ومحاولة للتخلص من الإسار الحديدى للتراث التقليدى الذى خلّفه السلف، تبزُغ قوى الرجعية وتنطلق حناجرها وتصيح بصوت يجلجل وسط الجماهير العريضة المؤمنة بفكرها: "للخلف درّ" فتعود العجلة إلى الوراء ويَدخل الإصلاحيون الجُحُور فى انتظار فرصة أخرى للظهور.

وهناك واقعة تاريخية أود أن أورِدها هنا بشيء من التفصيل لأنها تَرمُز في ظنى إلى سيطرة فكرة الالتزام بالماضى وعدم الخروج عنه والاحتكام إليه باستمرار على العقل العربى وتدل على أنها فكرة مُتأصِّلة ومُتَجَذرة فى اللاوعى الجماعى للعرب.

وتعود القصة إلى تلك اللحظات العَصيبة والحزينة فى تاريخ الأمة الإسلامية عندما أصيب الخليفة عمر بن الخطاب عام 644 بطعنة قاتلة وأوْصَى وهو على فراش الموت بأن يَجتَمع ستة من كبار الصحابة ليختاروا فيما بينهم الخليفة الجديد عَمَلا بمبدأ الشورى. وكانت هذه اللحظة الهامة فى تاريخ الأمة الإسلامية أول مناسبة يظهر فيها التنافس على السلطة بين الصحابة بعد أن تمَّت البيعة لأبى بكر ولعُمر من بعده دون مشكلات ذات بال.

المهم أن الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب اختلفوا فيما بينهم على من يكون الخليفة، لكنه كان من الواضح أن الأمر كان محصورا بين اثنين هما عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وكلاهما تزوَّج من بنات الرسول حيث كان علىّ متزوجا من فاطمة الإبنة المفضَّلة للرسول والتى توفيَت بعد النبى بفترة قصيرة، أما عثمان فقد تزوج ابنتى الرسول تباعا وهما رُقيَّة وأم كلثوم.

ونظرا لإدراكه أنه ليس لديه أى حظ فى تولى الخلافة خرج عبد الرحمن بن عوف باقتراح قَبِله الآخرون. وكان اقتراحه هو أن يَنسحب نفسه من الترشح على أن يَحظى فى مقابل ذلك على امتياز كبير وهو

أن يتولى مسئولية اختيار الخليفة بعد التشاور مع الآخرين وعلى أن يقبل الجميع برأيه.

ولا أريد الدخول فى تَشَعّبات الروايات الواردة فى كتب السيرة لكن ما يهمّنى هو السؤال الحاسم الذى طرَحَه ابن عوف على كل واحد من المرشحَيْن الرئيسيَيْن على أن يكون هذا السؤال معيارا أساسيا لانتقاء الخليفة، وهو سؤال يدلّ على الروح العربية القديمة المتشبّثة بالماضى والتى ترفض من حيث المبدأ كل من يحاول أن يُعمِل عقله ويتّخذ القرارات عن طريق المنطق والتفكير وليس بناء على اتباع من سَبَقه.

وكان السؤال الذى وجَّهَه ابن عوف لكل واحد من المرشحَيْن هو: "هل انت مُبايِعى على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعْل أبى بكر وعمر؟"

فأجاب علىّ: "اللهُمَّ لا، ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى".

فهذا الرجل العاقل الأمين أدرك أن هناك مستجدات قد تجعله يُصدر أحكاما وقرارات تتماشى مع المشكلات الجديدة التى لم تكن موجودة فى حياة الرسول كما لا يمكن أن يلتزم بكل ما صنعه ابو بكر وعمر وأنه لو قال "نعم" لكان منافقا وراغبا فى السلطة عن طريق التنازل عن مبادئه.

أما عثمان فأجاب على السؤال فورا وبلا تردّد قائلا: "اللهُمَّ نعم".

وأعاد عبد الرحمن بن عوف نفس السؤال على المرشحَيْن أمام الناس بعد الصلاة فجاءته نفس الإجابة من الرجلين، فلم يتردد فى أن يُمْسك بيدِ عثمان أمام الحاضرين ويبايعه على الخلافة.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو الآتى: لماذا كانت هذه الإجابة

فاصلة قاطعة فى اختيار الخليفة الجديد فى نظر ابن عوف والآخرين؟

والإجابة: لأنها تتماشى مع الثقافة السائدة التى تقوم على اتّباع السلف والتشبّث بالماضى وعدم الحياد أو الخروج عما فعله السابقون. ولو أن عبد الرحمن بن عوف كان قد وَجَد فى نفسه الشجاعة الكافية لاختيار علىّ بعد أن رفض هذا الأخير التعهّد بالالتزام بما صنعه أبو بكر وعمر لكان خارجا عن العُرف الثقافى السائد عند العرب ولَقوبل اختياره بالرفض والاستهجان.

وأعلم بالتكيد أنه كانت هناك عوامل أخرى كثيرة ومُتشعِّبة جعلت الناس آنذاك تتقبل ولاية عثمان لكن هذا السؤال الذى طرِح عليه وعلى غريمه كان الحد الفاصل فى الاختيار إذا صدّقنا كتب السيرة.

وأود أن أجيب هنا مسبقا على من سيوجهون إلىّ اللوم بأنى لا أرى إلا الجانب المظلم فى حضارتنا بأننى أفرّق تماما بين حقبة الزخم الحضارى الأولى وبين عصور التردى التى تلتها، كما أننى أدرك أنه كانت هناك دائما مقاومة فكرية لحالة التخلف وكانت هناك دائما محاولات للانتفاض ضد واقع الانحطاط والتخلف. وعلى الرغم من أن التيار الغالب منذ ما يقرب من ألف عام هو التحجّر والنقل والاتباع إلا أن تاريخنا زاخر بأمثلة مُضيئة لرجال ضحّوا بأرواحهم وراحة بالهم وعانوا من الاضطهاد لأنهم خرجوا على "فكر الجماعة" وانتفضوا ضد أساطير الأقدمين وسأكتفى هنا ببعض النماذج الصارخة والمعروفة للجميع.

وليسمح لى القارىء العزيز أن أبدأ بالرجل الذى وضع الاحتكام إلى

العقل فى قلب منظومته الفكرية والعقائدية وهو العالم الجليل أبو حنيفة الذى ضُرب بالسياط وسُجن وأهين واتّهِم بالخروج على منهج السلف الصالح فقال قولته الشهيرة: "هُمْ رجال ونحنُ رجال" أى هم بشرٌ اجتهدوا وخرجوا بنتائج وآراء وأفكار، ونحن بشر مثلهم نعيش فى عصر مختلف ومن حقنا أن نجتهد ونخرج بنتائج وآراء وأفكار مختلفة عما وصلوا إليه. ولم يكن يُقصِر قولته الشهيرة على التابعين دون الصحابة كما يدَّعى البعض الآن للتخفيف من وطأتها، لكنه كان يقصد كل من سَبقه بالرأى والإفتاء والتنظير.

مثال مضىء آخر هو ابن رشد الذى كان مِن أكثر مَن عانوا من الظلم والقَهْر الفكرى وقد لاقى الرجل ألوانا من الاضطهاد المعنوى سواء فى حياته أو بعد موته لأنه تجرأ وخرج عن الطرق المَرصوفة وسعى لإثبات حقائق لم يُدركها من جاءوا قبله لسبب بسيط وهو أن الظروف الموضوعية لم تكن تسمح لهم بذلك.

وكان ولا زال أكبر اتهام يوجَّه إلى ابن رشد هو أنه تأثر بفكر الفيلسوف اليونانى أرسطو واعتبر البعض ابن رشد خائنا وعميلا وأنه باع هويته الإسلامية ليتَدَثر بثياب الفكر الغربى المتمثل آنذاك فى الحضارة اليونانية القديمة. ومعروف أن كتب ابن رشد أحرِقت فى ميدان عام وأفلت هو من الموت فكان حظه أفضل من ابن المقفع والحلاج وغيرهما ممن خرجوا على النهج الرسمى والإطار الحديدى الذى وضعه علماء السلاطين وفرضوه على الحضارة الإسلامية فتسببوا فى تجمدها وتيبّسها وانحطاطها.

وأعتذر للقارىء الكريم عن التنقل بين العصور لكنه لا يمكن ألا أذكر ما حدث لابن جرير الطبرى الذى دُفِن ليلا وفى السرّ لأن العامة كانت تريد أن تَفتك بجثمانه وتُمثِّل به كما يروى أحمد أمين فى كتاب "ظهر الإسلام" نظرا لأن أقطاب التحجر آنذاك رَموه بأخطر الاتهامات التى تصل إلى حد الكفر لأنه تجرأ واستخدم عقله فى فهم الدين وتفسير القرآن. صحيح أن أنصار أحمد بن حنبل كانوا فى مقدمة أعداء الطبرى نظرا لأنه كان يؤكد أن زعيمهم ليس صاحب مذهب بل هو مجرد مُحَدِّث وناقل للحديث، لكن أعداء الطبرى لم يكونوا من الحنابلة وحدهم.

وكما تعرض أبو حنيفة والطبرى وابن رشد وغيرهم لتربّص حراس الماضى كانت الاتهامات من نصيب أقطاب النهضة وعلى رأسهم رفاعة رافع الطهطاوى الذى انتهى به الأمر إلى النفى للسودان لأنه تمسك بآرائه التقدمية التى كانت تسبق عصره وتسبق أسلوب تفكير عامة الناس فى زمانه.

وعندما كتب قاسم أمين كتابه الشهير "تحرير المرأة" عام 1899 لم يَسْلم من السبّ والقذف والاتهامات الجائرة التى وُجِّهت لكل من سَبَقه من المُجدّدين، فقيل إنه من عبيد الغرب وإنه خرج على ثقافة الإسلام ويسعى إلى تحطيم القيم وزعزعة التقاليد والأعراف التى كانت دائما من أركان الحضارة الإسلامية فى الماضى، كما لو أن مجرد التمسك بالنجاحات الماضية هو ضمان لنجاحات جديدة، وأن الانغلاق هو خير وسيلة لضمان الأصالة ونقاء الدين والثقافة.

وهناك فى القرن العشرين مثالان لرجلين سَبَحا ضد التيار وحَطما السلاسل المعنوية وخرجا عن القوالب الجامدة وهما الشيخ على عبد الرازق والدكتور طه حسين.

فعندما أصدر الأول كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" عام 1925 استشاط نواطير الماضى فى عصره غضبا وأرغدوا وأزبدوا وأخرجوا الرجل من زمرة العلماء لمجرد أنه قال إن الإسلام لم يضع نظاما متكاملا وواضح المعالم للحكم.

وقد أثبت محمد عمارة فى مقدمة كتابه الذى حقق فيه كتاب "الإسلام وأصول الحكم" والظروف والملابسات التى أحاطت به أنه كان وراء تلك الحملة الضارية على الشيخ علىّ عبد الرازق فرمان غير مكتوب من الملك فؤاد الذى كان يحلم بأن يُعيد الخلافة ويكون هو خليفة المسلمين بعد أن ألغَى الحاكم التركى كمال أتاتورك الخلافة فى استنبول عام 1924، فجاء كتاب "الإسلام وأصول الحكم" ليقوّض فكرته من أساسها ويثبت أن نظام الخلافة من اختراع البشر وأن الدين شىء والسياسة شىء آخر.

ومن الواضح أنه قد حدث تلاقٍ وانسجام بين إرادة السلطان وهَوَى العلماء التقليديين مما ضاعف من مظاهر التزمّت والتهجّم الشرس على الشيخ على عبد الرازق الذى ظلَمه التاريخ ولا زال حقه المعنوى مغبونا وأرى أنه آن الأوان أن يُردّ الاعتبار لهذا الرائد والمفكر الطليعى الذى قامت آلة الدعاية الرسمية المُمالئة لأولى الأمر والطبقات الحاكمة بفَرْم عظامه وتشويه صورته ظلما وعُدوانا.

والمثال الثانى من المفكرين الذين استثاروا غضب حراس القديم فى القرن العشرين هو كما قلتُ عميد الأدب العربى د. طه حسين سواء بكتابه الشهير "فى الشعر الجاهلى"، أو بأفكاره التى تتلخص فى أن مصر ثقافيا هى جزء من حضارة البحر الأبيض المتوسط التى انطلقت من اليونان قبل ميلاد المسيح بنحو ستة قرون مما يعنى ضمنا فى رأيه أنها لا بد أن تَنْسلخ عن ثقافة الصحراء التى يُمثلها التراث العربى فى الفكر والأدب والنظرة إلى الحياة وهى الأفكار التى بلورها فى كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" وغيره من مؤلفاته.

وقد تعرَّض طه حسين لسهام مَسْمومة سَدَّدها له أقطاب الفكر التقليدى المُتحجِّر الذين وقفوا دائما بالمرصاد فى وجه أى محاولة للتجديد والانفتاح على العالم الخارجى بل هم يعتبرون الغرب عدوا شيطانيا للإسلام وبالتالى فإن أية فكرة آتية من الغرب كجمرة ملتهبة قد تحرق عقول المسلمين وتجرفهم عن سواء السبيل. وكان أكثر ما أثار حراس الماضى على كتاب "فى الشعر الجاهلى" هو رفضُ صاحبه تقبّل الخرافات والخزعبلات التى فرضها السلف على التراث العربى الإسلامى، وقد تهكّم طه حسين مثلا بأسلوبه المتميز على رواية قتل سعد بن عبادة الأنصارى بأيدى الجنّ التى قامت بعد أن قتلته بتأليف شعر ثم أنشدته قائلة:

قد قَتَلنا سَيدَ الخَزْ   رَج سعد بن عُبادة
ورمَيناه بسَهْمَيـ   ـنَ فلمْ نُخطِيء فؤادَه

ولعل آخر ضحية مَرموقة لأنصار الماضى المُدَجَّجين بسلاح التراث

والتقاليد هو الراحل نصر حامد أبو زيد الذى قام بمحاولة لفهم جديد للنص القرآنى فكان نصيبه الشتائم والقذف والاتهامات الجائرة وصَدَرَ حكم محكمة بتطليقه من زوجته على أساس أن المؤمنة لا يجوز لها الكافر، وهو حكم خطير جعل الرجل هدفا للمُتطرفين الذين يَعتبرون أن قتل الكافر فريضة تُدخلهم الجنة، فهرب الرجل إلى هولندا وعاش بها بضع سنوات ولا شك عندى أنه مات كَمَدا ونَكدا وطريدا من أرض بلاده التى يعشقها.

وبالتوازى مع أقطاب التنوير والتحديث تعرَّض رواد حركة الإصلاح لنفس المصير ولم يُفلتوا من جام غضب المدرسة التقليدية مع أنهم كانوا يَجهرون بتمسّكهم بالدين أشدّ التمسك وأن غرضهم الوحيد هو التجديد ومواءمة الدين مع العصر الحديث. وكان على رأس هؤلاء المصلحين الشيخ الجليل محمد عبده الذى كان هدفه تنقية الإسلام من الشوائب التى عَلقت به خلال القرون الماضية وقد تعرّض لأخطر الاتهامات بالتبعية الفكرية وإفساد الدين. وكما حدث للطبرى وغيره كثيرين هاجم الدَهماء منزله ورموه بالحجارة بإيعاذ من سَدَنة الماضى وحراس التقاليد.

ولا يخفى علىّ بالتأكيد أنه كانت هناك عادة خلفيات سياسية وراء اضطهاد العلماء والمفكرين والمجدّدين وأن السلطة بطبيعتها تسعى للحفاظ على الوضع القائم وتنبذ التجديد وتكره عدم الالتزام بالأطر الرسمية، وكل ذلك يبرر اضطهادهم من قبل السلطات الحاكمة.

وإذا كان من الطبيعى أن يتعرض المُجدّدون والإصلاحيون لاضطهاد

الحاكم فإن أزمة ثقافتنا هى أنهم أستثاروا دائما غضب العامة ونفور الجماهير العريضة حتى البسطاء منها لأن حراس الماضى ودراويش التقاليد صَوَّروهم على أنهم خارجون على الدين وأنهم ينتقدون الشريعة ويتهكمون على المقدسات، وأدخلوا فى روع البسطاء أن الدين فى خطر والأخلاق فى خطر والقيم والمثل الإسلامية فى خطر، وأن هذا الخطر يتمثل فى أولئك الذين يبحثون عن التجديد وينقلون من ثقافات خارجية بدلا من الانكفاء على ما تركه السلف.

لكن الأمر الذى يبعث الطمأنينة فى قلبى هو أن هؤلاء المُجدِّدين والمُبدعين والمُصلحين، على الرغم من حملات التشويه والتكفير التى تعرضوا لها، هم الذين بقيت أسماؤهم وإسهاماتهم على مرّ الزمن. أما نواطير الماضى وجهابذة التحجّر فقد سقطوا فى طىّ النسيان وألقيت أسماؤهم فى مَزبلة التاريخ ولا يذكرهم أحد حتى وإن كانت الآثار السلبية لمواقفهم باقية فى مجتمعاتنا.

ومنذ ثورة 25 يناير لم تعد المشكلة الأساسية للمثقفين والمفكرين مع السلطة السياسية بالدرجة الأولى وإنما مع جموع الناس التى آمنت بالفكر التقليدى وصارت تهتدى بغلاة المنهج الانغلاقى وتنضوى تحت التأثير السحرى لتجار الدين.

ومثلما حدث فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت قد قامت فى أوروبا حركتان شبه متوازيتين بدأت إرهاصاتهما فى حدود القرن الخامس عشر وكانتا السبب الاساسى فى الخروج من عصور الظلام

التى تخبّطت فيها عقول الأوروبيين لنحو ألف عام كاملة وانغلقت ضمائرهم وكانوا أقرب إلى البهائم منهم إلى بنى آدم.

الحركة الأولى خرجت من رَحِم الدين وكان زعماؤها من رجال الكنيسة الذين ثاروا على أوضاعها المُهترئة وجبروتها النفسى وسطوتها المعنوية وسُمِّيت هذه الحركة بالإصلاح وكان من نتيجتها المباشرة ظهور البروتستانتية التى تمرَّدت على سلطة البابا.

وكانت واحدة من أهم اعتراضات التيار الجديد على كنيسة روما فضيحة صكوك الغفران حيث تَفَتّق ذهن أحد الباباوات عن فكرة جهنمية لجمع المال لأغراض كثيرة منها بناء كنيسة الفاتيكان الموجودة حاليا فى قلب روما. وكانت الفكرة تقوم على بيع صكوك أو "عقود ملكية" بتوقيع البابا تضمن لمن يشتريها مقابل أموال طائلة مكانا فى الجنة ويكون هذا المكان أكثر تميزا كلما زادت القيمة المدفوعة، وهو نفس مبدأ أسعار شاليهات الساحل الشمالى التى يَرتفع ثمنها كلما اقتربت من شاطىء البحر.

وكان رجل تشيكى من بوهيميا يُدعى "يان هُوس" أول زعيم لحركة الإصلاح وتم حرقه فى ميدان عام سنة 1415 لتمرّده على سلطة الكنيسة. لكن الزعيم الحقيقى لحركة الإصلاح الدينى المسيحى كان الألمانى مارتن لوثر وهو الذى وضع أسس البروتستانتية.

أما التيار الثانى والأساسى الذى أتاح لأوروبا الإفاقة من سُباتها العميق فكان من خارج الكنيسة بل ومن خارج الدين المسيحى. وقد أطلق على هذا التيار حركة "الرينيسانس" أى النهضة التى كانت بمثابة أشعة فَجر

جديد للإنسانية ووضعتْ الإنسان فى قلب المنظومة الكَوْنية بعد أن كانت المسيحية التقليدية تنادى باحتقار الجسد لأنه أصل كل الخطايا وتعتبر الحياة على الأرض مجرد فرصة للتكفير عن ذنوب الإنسان انتظارا للحياة الآخرة.

وما حدث فى العالم الإسلامى مُشابه فى خطوطه العريضة لما حدث فى الحضارة الأوروبية. فقد كانت هناك حركة إصلاح قادها فى العصر الحديث جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده كانت رافضة للدين الرسمى المتمثل فى المؤسسات الدينية والتراث المتراكم عبر العصور والذى امتزج بالسياسة وتميز بتدخل الخلفاء والأمراء والسلاطين من أجل تطويع الإسلام لصالح حكمهم وبقائهم فى السلطة وخضوع المسلمين لهم فى كل مكان.

لكن رواد الإصلاح عندنا أحجموا عن تكفير المؤسسات الدينية الرسمية وإن كانوا قد وَجَّهوا لها انتقادات عنيفة لعل من أبرزها ما قاله الشيخ محمد عبده لشيخ يُدعى محمد البحيرى فى حوار قصير للغاية أورَدَه د. محمد عمارة فى فصل "إصلاح الأزهر" فى مجموعة الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده (الجزء الثالث صفحة 194).

ويقول الشيخ الجليل حرفيا إجابة على سؤال للشيخ البحيرى: "إذا كان لى حَظّ من العلم الصحيح، فإننى لم أحَصِّله إلا بعد أن مَكثتُ عشرَ سنين أكنُسُ من دماغى ما عَلقَ فيه من وَسَاخَة الأزهر".

ولا أعتقد أنه يمكن لأحد اتهام الشيخ محمد عبده بمحاولة هَدْم الإسلام

عن طريق الهجوم على الأزهر ولكنه كان يترأس التيار الإصلاحي الذى يرى فى المؤسسات الدينية الرسمية عراقيل أمام التطور والرقى وكانت لديه شجاعة التعبير عن رأيه. والأهم من ذلك أن المجتمع آنذاك كان أكثر انفتاحا وسماحة من الآن وكان من الممكن أن يتقبل مثل هذه الآراء الجريئة برحابة صدر، وهو مناخ لم يعد موجودا فى عصرنا الحالى فى ظل الإرهاب الفكرى الذى يُمارَس فى مصر والعالم العربى باسم الدين.

ومنذ أن قرر العلماء إغلاق باب الاجتهاد فى بداية القرن الرابع الهجرى أى فى حدود سنة 900 ميلاديا لم يكن مسموحا لأحد أن يُقدِّم رؤية جديدة أو وجهة نظر تختلف قليلا أو كثيرا عن السلف. وظل الاجتهاد فى الدين مُحرَّما شرعا لما يُناهز ألف عام حتى جاءت حركة الإصلاح التى قادها الأفغانى فكانت ثورة على إغلاق باب الاجتهاد ورفضا لهذا القرار التعسفى الذى اتخذه شيوخ السلاطين منعا للفتن السياسية وخدمة للسادة والوجهاء والإغنياء أكثر منه خدمة للإسلام.

أما رواد النهضة وحركة الانبعاث كما أسماها البعض فلم تركّز أنظارهم على الماضى و لم تنغلق على داخل الأمة وإنما توجَّهَت أنظارهم إلى الثقافات والحضارات الخارجية. كانت وجهة نظرهم أنه لا بد من الانفتاح على العالم غير المسلم ولا بد أن يَنْهلوا منه الأفكار والمذاهب الفكرية والثقافة التى لم يكن لها وجود آنذاك فى دنيا العرب والمسلمين.

ربما لم يكن رواد النهضة ضد الدين لكنهم لم يَضَعوه فى قلب المنظومة الفكرية للنهضة التى استحدثوها و لم يكن الإسلام مُحرّكا للأفكار الجديدة

التى كانت وراء عصر الانبعاث، وعلى رأسها حرية الفكر والتعبير ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات والديمقراطية كنظام سياسى. ونجح أقطاب النهضة والتنوير فى تغيير شكل مصر والعالم العربى وعادتْ قاطرة التقدم والرقى تجذب المجتمعات العربية من جديد بفضل أفكار وكتابات هؤلاء الرواد.

لكنّ قوَى الماضى وأنصار عقيدة "للخلف درّ" كانوا أشد بأسا وأقوى شكيمة من رجال الإصلاح ومن أقطاب النهضة مُجْتَمِعين، ونجحوا فى إجهاض كل الأفكار الجديدة وكل الرُؤَى الثورية التى جعلت مصر تقفز قفزات هائلة من نهايات القرن التاسع عشر إلى ما بعد منتصف القرن العشرين وتتضاءل فيها الهُوّة بين طبقة السادة وطبقة العبيد وتظهر فيها طبقة مُتَعَلمة متوسطة وطبقة النخبة الثقافية التى خرج من كنفها أمثال قاسم أمين وأحمد لطفى السيد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم كثيرون. فكانت النهضة كفصل الربيع الذى تتفتح فيه الزهور ويزدان فيه الشجر بالأوراق الوارفة ثم يأتى الشتاء ليقضى على ما صنعته أيادى الربيع.

فرجال النهضة والإصلاح كانوا من أنصار شعار "إلى الأمام انظر"، لكن المجتمع الذى يعيشون فيه يدين بثقافة "للخلف درّ". وفى الوقت الذى انتصر فيه الإصلاح بأوروبا فى زلزلة المعتقدات البالية التى كانت تتمسّك بها الكنيسة ونجح فيه رواد النهضة فى إشعال أنوار المعرفة فى عقول الناس، لم ينجح رجال الإصلاح والنهضة فى مصر والعالم العربى

فى الهيمنة الكاملة على الساحة برغم جهودهم الجبارة.

وفى رأيى أن عقارب الساعة بدأت تعود للوراء من جديد عملا بمبدأ "للخلف درّ" عندما قرر السادات فى عام 1971 الاعتماد على التيارات الدينية لمواجهة خصومه ومعارضيه وأعلن الحرب على المفكرين والمثقفين والمُبدعين الذين كان يسمِّيهم تَهَكّما "الأفندية" كناية عن أنهم بعيدون عن هُمُوم الشعب.

وقد نتّفق أو نَختلف حول سياسة الانفتاح الساداتية وحول خيار التحالف الاستراتيجى مع أمريكا وعقد سلام منفرد مع إسرائيل. لكن ما لا يمكن الاختلاف عليه من وجهة نظرى هى أن سياسات السادات أدَّت إلى إعادة سيطرة الفكر الدينى التقليدى الرجعى وهيمنة حراس العقيدة وجهابذة الإنغلاق الفكرى على العقل المصرى والعربى بعد أن عاشوا فى حالة من الكُمون لما يقرب من مائة عام.

وبرغم أننى لا أؤمن كثيرا بنظريات المؤامرة والمُخططات الخارجية إلا أنه من الواضح أن سياسات السادات ومبارك من بعده كانت تدخل ضمن إطار رؤية أمريكية شاملة لإعادة تشكيل خريطة العالم على أساس الفكر التقليدى واستئصال شأفة الفكر الاشتراكى التقدمى الذى ساد لدى شعوب العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

وإذا نظرنا إلى ما حدث فى مصر منذ السبعينات فى إطار نظرة كَوْنية يتضح لنا أن هناك إرادة مركزية تقودها الولايات المتحدة لإثارة النعرات الثقافية والدينية وقد بلور هذه الرؤية المفكر الأمريكى الراحل هانتنجتون

في محاضرته الشهيرة التي تحوّلت إلى كتاب بعنوان "صِدام الحضارات" صدر عام 1996 وتصوّر الكثيرون أن ما جاء به هو رؤية مستقبلية لأحد كبار أساتذة جامعة هارفارد.

لكن الحقيقة من وجة نظرى أن الرجل لم يكن يُقدِّم نظرة مستقبلية بقدر ما كان يُترجم الرؤية الأمريكية لعالم تسيطر عليه الانقسامات العرقية والإثنية والدينية وأنه كان يترجم الاستراتيجية الأمريكية لمرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ويُهَيِّء لعالم يتميز بالاستقرار والرخاء في الغرب وبالانقسام والتشرذم في بقية أنحاء العالم وبخاصة في العالم العربي الإسلامي.

وبموجب تركيبتها الفطرية المُنجَذِبة إلى الماضي كانت العقلية العربية مؤهّلة لتقبل هذه التوجّهات الجديدة – القديمة، أي عودة الفكر التقليدي المُنغلق ونَبْذ كل جديد والتقوقع على الذات. ومن يُلقِ نظرة موضوعية على العقلية العربية منذ نشأتها أي منذ العصر الجاهلي يتضح له أنها عقلية ذاتية حتى النخاع. وإذا كان الدين الجديد قد غيَّر كثيرا من العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية فهو لم ينجح في اقتلاع الثوابت التي تقوم عليها الشخصية العربية. وقد حاولتُ إثبات هذه الحقيقة في كتاب "تحطيم الأصنام" حيث تعرَّضتُ لثلاث ركائز راسخة قامت عليها الثقافة العربية وهي "الفكر القبلي" و"ثقافة الأذن" و"حضارة اليقين".

وأتمنى ألا تتصور أيها القارىء العزيز أن ما أقصده هو أنه لم يطرأ على

الشخصية العربية أى تغيير بعد الإسلام. فواقع الأمر الذى لا يمكن أن يُنكره عاقل هو أن الدين الجديد كان بمثابة الزلزال الذى هز الكثير من القناعات وغيّر الكثير من المفاهيم وصار الايمان قوة ديناميكية جبارة كانت غائبة عند عرب الجزيرة.

لكن ما أقوله هو أن جوهر الشخصية العربية ظل على ما هو عليه حتى وإن تلون بلون الدين وصُبغ بأفكار جديدة حادَت به، ولو مؤقتا، عن مكنون الشخصية الجاهلية. ومعروف أن الرسول كان يأخذ دائما على معاصريه مواقفهم الجاهلية ويسعى إلى تغييرها فى العمق لكنه بعد وفاته عادت النزعات الجاهلية إلى الظهور وأخذت تَتعالى نبراتها وكان من الصعب قمعها فى العقول والضمائر.

ولعل الدليل الملموس على ذاتية الشخصية العربية هو أن الإبداع الأوْحَد الذى تمحّور حوله العقل العربى فى الجاهلية وبعدها هو الشعر، ولم تظهر أنواع الإبداع الأخرى إلا بعد قرون وبفضل تأثير الثقافات الأخرى ونقل فنونها وآدابها.

ولعل الشعر هو أرقى أنواع التعبير عن الذات الداخلية للإنسان. فهو تعبير عن الأحاسيس الكامنة فى أعماق النفس وهو نتاج العواطف الهوجاء التى تنطلق بلا حواجز ولا حدود داخل النفس البشرية وعادة ما لا يتدخل فيها العقل بمعنى المنطق العقلانى. الشعر هو انعكاس للذاتية وهو نقيض للموضوعية. والذاتية والموضوعية هما وجهان للنفس البشرية. لكن الشاعر الموضوعى لا يكون شاعرا بالمعنى الحقيقى للكلمة. والشعر هو

تعبير عن النفس يعتمد على شكل الرسالة أكثر مما يعتمد على مضمونها أى أن توصيل الرسالة إلى المتلقى يكون عن طريق التأثير المعنوى والنفسى باستخدام أدوات الجرس والإيقاع والصور الخيالية ويعتمد على دغدغة العواطف والأحاسيس وتهييج المشاعر أكثر من تحفيز العقل على التفكير وتقديم أفكار منطقية ومسلسلة لإيصال الرسالة.

ولا شك عندى أن الشعر أقرب الفنون لفطرة الإنسان وأنه تعبير تلقائى عن النفس البشرية لكن لا بد من وجود فنون إبداعية أخرى إلى جانبه لأن النفس البشرية ليست أحادية لكنها معقدة ومركبة بحيث تحتاج لأكثر من وسيلة للتعبير عن نفسها فنيا حتى تكتمل أبعاد العقل والفطرة والإحاسيس والرغبات والغرائز.

وحتى لا يتصيد أحد فى الماء العكر ويتهمنى بأنى أنْقِص من قدر الشعر وأفتى بأنه دليل على الغيبية أؤكد بوضوح أننى لا أنتقص من تفوق عرب الجزيرة فى إبداع الشعر والبراعة الفائقة التى تميزوا بها فى هذا الميدان وهو أمر يُحسب لهم، وإنما المشكلة تكمن فى غياب كافة الأنواع الإبداعية والأدبية الأخرى فى الجزيرة العربية.

فعرب الجزيرة لم يتركوا آثارا تدل على حضارتهم. لم يتركوا تماثيل أو نقوشا أو رسومات على الجدران. لم يتركوا قصورا أو مبانى تدل على تَفرّدهم فى فن المعمار. بل لم يتركوا مساجد فى الجزيرة العربية تتحدّى الزمن كما ترك المسلمون فى مصر والمغرب والشام والعراق.

لذلك أقول إن كل الثقافات الأخرى قد عرفت هى الأخرى الشعر كوسيلة أساسية للتعبير عن نفسها لكنه لا توجد حضارة ولا ثقافة فى

العالم احتكر فيها الشعر ساحة الإبداع وسَحَق كل الوسائط الأخرى والأشكال الإبداعية المألوفة.

فإذا نظرنا إلى الحضارة اليونانية القديمة نجدهم قد عرفوا الشعر وتميزوا فيه لكنهم برعوا كذلك فى المسرح والقصص والملاحم بالإضافة إلى المعمار وفن النحت الذى تشهد عليه مئات من أروع التماثيل الفنية التى تزيِّن أشهر متاحف العالم. كل هذا إلى جانب ابتكارهم للفلسفة التى ترتكز على الحكمة وإعمال العقل.

واقتصار الإبداع والتعبير الأدبى والثقافى فى الحضارة العربية على الشعر وحده يحمل دلالات كثيرة ربما لم ينتبه لها الكثيرون أو بمعنى أدق لم يحاولوا استخلاص مغزاها وخلفياتها.

الجبـر

من أخطر عيوب التربية الشائعة فى مصر والعالم العربى سَعْىُ الأهل المستمر لفرض أسلوب حياة وتصرّفات معينة على الأولاد وإجْبارهم على سلوكيات بعينها ليست مرتبطة بالضرورة بالتربية أو بالأخلاق وتؤدى إلى تكبيل مَلَكاتهم الفِطريّة وانكماش مساحة التفكير الحرّ لديهم. ويبدأ الموضوع بأمور بسيطة مثل الأكل والشرب والمَلبَس حيث لا يُترك للأولاد والبنات عادة حرية الاختيار بل يلتزمون بما قرَّرَه أهلهم، ويصل الأمر إلى محاولة التحكّم فى طريقة تفكيرهم وتوجيههم بوسائل مباشرة أو غير مباشرة نحو أسلوب حياة مُعيَّن فتنحَبس العقول فى قالب واحد من القيم والأفكار التقليدية المتزمتة.

وقد اكتشفَ علم النفس الحديث أن الفرْض والتوجيه المُستمرَيْن لهما

تأثير مُدمّر على الأولاد ويؤديان إلى قتل روح المبادرة والحِسّ النَقدى وحرية التفكير والتعبير، والأخطر أنهما يؤديان إلى سَلب الإرادة الحرة من النفس وإخماد الشعور بالمسئولية وبالقدرة على الاضطلاع بالواجبات، كما يؤديان إلى الجنوح لتوكيل المسئولية إلى الغير وتحديدا إلى القوَى العليا المتمثلة فى الأهل أولا ثم فى الزعيم أو تلك المُتَجسِّدة فى السماء.

وهذا العيب وأقصدُ به الجَبْر والفَرْض الذى أظنّ أنه يَصُبّ فى خانة المُسَبِّبات الرئيسية لحالة التخلف التى نعيش فيها حاليا، له جذور ثقافية وتراثية عميقة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وهى جذور مشتركة مع حضارات أخرى، لكن تلك الحضارات الأخرى نجحتْ فى التخلص منه فتقدمتْ وتركتنا "محلك سِرّ".

ومن يقرأ كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالى يتضح له كَمْ أن ثقافتنا مَبْنية على فرض الآراء والأفكار والتصرفات فى أمور يُفترض فيها أنها تندرج تحت بند الحرية الشخصية وحرية الاختيار. لكن الإمام الغزالى وغيره من الأئمة والدعاة يعتبرون أنه على المؤمن أن يَمْتثل لما يقوله العلماء وأن يلتزم ويُطيع بلا نقاش أو جدال على أساس أن ما يُفتون به مُستنبَط استنباطا مباشرا من الدين أى من القرآن والسنة. وفى حالة عدم إذعانه فإن هذا المؤمن يكون مُتمرّدا أو عاصيا، هذا إن لم يَصِموه باتهامات أكثر خطورة مثل الكفر.

وقد استشهدتُ بكتاب "إحياء علوم الدين" كمثال واحد من بين مئات الأمثلة التى تدلّ على اقتناع رجال التربية وعلماء الدين والشيوخ

بأن مهمتهم فى الحياة هى فرض أسلوب تفكير وسلوكيات وتصرفات على الشباب وعلى المؤمنين عامة مُتصوّرين أنهم يَصنعون منهم بذلك المثل الأعلى للمُسلم النموذجى المُطيع.

وهذه النزعة المستمرة للفرض والإكراه تتناقض مع حرية الاختيار التى منحها الله للإنسان عندما وَهَبَ له عقلا قادرا على تفضيل ما يُناسبُه وما يَميل إليه.

ولا يقتصر الجَبْر على الأمور الشكلية كما قلتُ لكنه يتعداها إلى كافة مناحى الحياة. فالإنسان المصرى والمسلم بصفة عامة يقضى حياته مُجبرا على أفعاله ومواقفه سواء أكان ذلك الجبر شعوريا أو لا شعوريا. فالجبر لا يأتى من خلال السلطة الأبوية أو السياسية فقط. فالإنسان فى الحضارة العربية الإسلامية يعيش حياته مدفوعا بقوة خفية نابعة من نشأته وتربيته والمناخ العام الذى يُشجّع على الانقياد والسلبية.

والغريب أنه يُذعِن وهو مقتنع أنه يختار بمَحض إرادته لأن الخضوع لما أمرَ به هو أمْر طبيعى وقضية مُسَلّم بها بل هو التصرف الصحيح الوحيد وأن التمرّد على السلطة أيا كانت هو أمر غير مقبول وأن الدين والأخلاق النابعة منه تُحَتّم عليه الالتزام بما نشأ عليه وبما لَقّنه أياه والده وأستاذه وبما أمَرَه به شيخ الجامع ورئيسه فى العمل وبكل ما يخرج من أفواه أولى الأمر.

ومن منطلق هذه القناعة المُتَرَسّخة فى الوجدان الجماعى يُصبح السَير فى القطيع واجب مُقدّس وأى محاولة للتفكير الحر المستقل بمثابة خروج على المِلّة وعلى صحيح الدين.

لكن تعالوا معى نَسْلك ذات النهج الذى نَنتَهجه سويا فى فصول هذا الكتاب فلا نكتفِ برصد الظاهرة وكَشف آثارها السلبية الحالية وإنما نبحث، كما فعلنا مع العيوب الأخرى المتأصلة فى الشخصية المصرية والعربية، عن جذور الجَبر فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وسوف يتضح لنا أن مَنبع نزعة الفرض والإجبار المهيمنة على ثقافتنا جاءت من داخل عقول علماء فَهَموا النصَّ القرآنى على أنه سلسلة من الأوامر والنواهي لا تسمح للإنسان بالاختيار والتدبّر وأن مساحة الاختيار لا تكون إلاّ فى أضيق الحدود، وأن الإنسان المؤمن مضطر إلى الخضوع لنوعية من الحياة مُسْتنبطة من القواعد التى وضعها القرآن والسنة طبقا للتفاسير والأحكام التى فرَضَها هؤلاء العلماء على الناس فرضا جيلا بعد جيل.

ولا يجول بخاطرِى أن خِصْلة الفرض والجبر تنبثق من الثقافة الإسلامية وحدها دون غيرها. فمن يَسْعَ لتأصيل هذه الظاهرة يكتشف أن أحد أهم منابعها معتقدات جاءت فى التوراة قبل أن تنزل على المؤمنين فى القرآن، واستخلص منها علماء السلاطين عقائد تتناسب مع مصالح الحكام والملوك والطبقات الحاكمة. وسوف أتوقف هنا عند قصّتَيْن وردتا فى التوراة والقرآن الكريم ويعرفهما كلّ مُؤمن بالديانات السماوية الثلاث.

الأولى هى قصة آدم الذى كان يعيش فى ربوع الجنّة مع زوجته حَوّاء وأخرِج منها لأنه عصا أوامر الله وأكل من ثِمار الشجرة المُحرَّمة. والقصة معروفة للجميع لكن ما يَلفت النظر هو أنَ الأمر الإلهى لم يكن مشفوعا بأى شرح أو تفسير، أى أن آدم لم يكن يَعلم لماذا حُرِّم عليه الأكل من فاكهة

تلك الشجرة بالذات دون غيرها من الأشجار التى تملأ الجنة، وبالتالى فمن الواضح أن المطلوب منه هو أن يُطيع الأمر دون أن يَفهم مَغزاه أو دوافعه.

أما القصة الثانية فهى قصة سيدنا إبراهيم الذى طلب منه الله ذبح ابنه المُحَبَّب إلى نفسه وهو إسحق بالنسبة لليهود والمسيحيين وهو سيدنا إسماعيل فى القرآن. وبالتأكيد أن إصدار الأمر لأب يُكنّ مشاعر الحبّ والمودة لابنه بقتل هذا الإبن دون جُرْم ارتكبه الطفل ودون أن يَعلم الأبُ سبب فعلته هو أمرٌ صعبٌ للغاية على نفس أى إنسان.

لكن سيدنا إبراهيم أطاع الأمر دونما تردد. بل إن الطفل نفسه انصاع للأمر الإلهى قائلا: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الصافات: آية 102]. وأوشك الأب أن يقوم بذبح ابنه لولا أن ناداه ربه وأوقف يده التى ارتفعت بالفعل لتهوى على رقبة إسماعيل وافتدى الطفل بذبْح عظيم.

وسواء أكانت هذه القصص رمزية أو أنها وقعت فعليا بهذه الصورة فإن مغزاها الدينى هو طاعة الله والاستسلام لأمْره والالتزام بما جاء بالكتب السماوية وبالرسالة التى جاءت بها الأنبياء، وأن الأنبياء أنفسهم وهما آدم وإبراهيم فى هاتين القصتين قد ضربا المثل فى الطاعة المطلقة التى لا تنتظر تفسيرا أو تبريرا عقليا أو غير عقلى، طاعة لا تبحث عن العِلل والأسباب بل تنبنى على الإذعان والخضوع.

وواضح لمن يستخدم عقله أن هذا الاستسلام وذلك الخضوع يتعلقان بالله وحده دون غيره أى أن الله يطلبهما لنفسه دون البشر. لكن أولى الأمر

وَجدوا فى ذلك فرصة سانحة للاستناد إلى الدين والاتّكاء على الكتب السماوية من أجل إقناع شعوبهم بطاعتهم والخضوع لأوامرهم ونواهيهم دون نقاش أو مجادلة.

ولم يَدَّخِر العلماء وشيوخ السلاطين جهودهم لإيجاد الحُجَج من أجل تطويع النصوص الدينية لمصلحة الطبقات الحاكمة وإيجاد نوع من الخلط واللبس بين طاعة الله وطاعة أولى الأمر، وبين الاستسلام لإرادة الله والاستسلام لإرادة السلطان.

وكما أن الإنسان يحتاج إلى قوة عُليا مُتَمَثلة فى الله سبحانه وتعالى فإن المجتمعات كانت دائما فى الماضى بحاجة إلى زعيم أو مَلِك يَتَحلى بصفات عُلوية وخارقة للعادة من أجل بثّ الشعور بالطمأنينة والأمان والارتياح فى نفوس الناس. وقد ترجم الشاعر الكبير خليل مطران هذه النزعة الفطرية لدى الإنسان ببيت شعر رائع يقول:

كلُّ قوْمٍ خالقو نيرونَهمْ   قيصرٌ قيلَ لهُ أم قيلَ كِسْرَى

أى أن الشعوب هى التى تَصْنع الطغاة لأنها تحتاج إليهم وتختلف أسماء هؤلاء الطغاة من نيرون إلى قيصر أو كسرى أو غير ذلك.

لكنه مع إعْمال العقل وحرية الرأى والتعبير ومع اختمار النُضج السياسى والاجتماعى تخلصتْ المجتمعات المتقدمة شيئا فشيئا من الاحتياج إلى الزعيم المُلهم الذى يَستمدّ سلطته من السماء فى حين أن الشعوب التى تَرْزح تحت وطأة التخلف الحضارى لا زالت مَسْحورة بفكرة القائد والزعيم المُنقِذ وما يسمى بالمُستبد العادل.

والخضوع للقوىّ هى غريزة إنسانية يُرجِع علماء الانثروبولوجيا أصلها إلى بدايات المجتمعات البشرية عندما كانت القوة البدنية هى وسيلة البقاء الأساسية ولولاها لربما اختفى الجنس البشرى من على وجه الأرض. وكانت غريزة الخوف هى المُنْجية من المَهالك وخاصة من الحيوانات المفترسة التى كانت تهدِّد المجتمعات البدائية. لذلك فقد كان القوىّ هو الذى يَحْمى الجماعة ويَذود عنها فى أوقات الخطر.

لكن الوجه الآخر لهذه الحماية كان الامتياز الذى يَحصُل عليه القوىّ وهو السيطرة على مَن حوله والهيمنة على مقدراتهم. وكان من المنطقى أن يَنضوِى الجميع تحت جناح هذا القَوِىّ ويخضعون له ويرتعدون فى وجوده لأنه من ناحية يضطلع بدور حمايتهم من المخاطر وثانيا لأنه قادر على البطش بكل من تسوِّل له نفسه الخروج عليه.

وظلت تلك هى سُنّة العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى كافة المجتمعات الإنسانية إلى أن تبلور النظام الديمقراطى الذى لعب دورا حاسما فى تقليص هذه القاعدة، وإن لم يقضِ عليها نهائيا.

وقناعتى أن المِحْنة التى عَطلت التقدم فى العالم العربى الإسلامى بعد مرحلة الزّخَم الأولى هى أن طاعة الله فى السماء تحوَّلت إلى طاعة البشر فى الأرض. فالحاكم من فرط سطوته وغروره كان يتوقع من الرعية أن يُطيعوه طاعة عمياء دون تفكير، بنفس القدْر الذى يطيعون به الخالق. وقد اعتمد الخلفاء والحكام والسادة طوال التاريخ على جهل الشعوب لإيهامهم بأنهم ظل الله فى الأرض وأنهم جاءوا بإرادة السماء وبالتالى

فإنه يَتَعيَّن على الجميع طاعتهم بلا جدال أو نقاش كما فعل الأنبياء مع الله. وفي خطبة ألقاها بمكة لم يَتورَّع الخليفة العباسي المنصور عن أن يقول: "إنما أنا سُلطان الله في أرضه" (العقد الفريد ج 2 صفحة 179)، وهو مثال من بين مئات الأمثلة.

وهناك قناعة عامة بأن طاعة علماء الدين والشيوخ هي مطابقة لطاعة الله لأن هؤلاء هم الذين يمتلكون وَحدَهم مفاتيح التفسير الصحيح للدين وللقرآن والسنة والشريعة.

ولأنني اخترتُ تعبير "الجبر" عنوانا لهذا الفصل فلا بأس من إعطاء فكرة عن نشأة هذه العقيدة في التاريخ الفكري الإسلامي. وأول من تحدَّث بالجبر كمنهج عقائدي رجل يُدعى الجَهْم بن صفوان بعد نحو مائة عام من هجرة سيدنا محمد، وهو الذي وضع الأسس النظرية الدينية لهذه الفكرة ونشأت بعد ذلك فرقة أطلق عليها الجَبْرية.

ويكفينا أن نلخّص هنا بإيجاز وجهة نظر الجهم الذي كان رأيه أن الإنسان لا يَقدر على شيء ولا يُوصَف بالاستطاعة وإنما هو مَجْبور في أفعاله لا قدْرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما الله هو الذي يَخلق الأفعال فيه كما يخلقها في سائر الجمادات، وكان الجهم وأتباعه مقتنعين بأن الأفعال تُنسَب للإنسان مجازا كما تنسب للجمادات فيُقال "جَرَى الماء" و"طلعتْ الشمس" و"أمطرتْ السماء".

ولا أودُ أن أخوض في جدل حول فكر الجبرية والخلاف حول إن كان الإنسان مُخيَّرا أم مُسَيّرا وهو جدل عقيم ومُعَقد يُدخل العقل في متاهات لا

يمكن الخروج منها، وقد أضاعت أجيال من المسلمين حياتها فى مهاترات حول هذه القضية بدلا من أن يساهموا فى تطوير ورُقىّ العقل العربى. ما يهمنى هنا هو ما تركته فكرة الجبر من أثر على حياة الناس الشخصية والعامة وعلى مفهومهم للعلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الإسلام بعد حقبة الخلفاء الراشدين خاصة وأن الرسول قد تنبأ بعصور الحُكم الجبْرى بعد النبوة والخلافة على منهاج النبوة.

ويؤكد بعض علماء العقائد أن أول من تحدَّث بمنطق الجبر قبل الجهم كان معاوية بن أبى سفيان الذى أنشأ الدولة الأموية، وكان الرجل مرفوضا ومكروها من جانب أهل العراق نظرا لما صَنَعه مع علىّ بن أبى طالب. وقد كتب القاضى عبد الجبار فى كتاب "المُغنى" ما نصّه أن "أول من قال بالجبر وأظهره هو معاوية ثم سار عليه ملوك بنى أمية من بعده". وأنا أكمل عبارته قائلا: وسار عليه كل ملوك وسلاطين وأمراء ورؤساء العالم العربى الإسلامى من بعده حتى يومنا هذا.

وبعد أن استقرّ الأمر لمعاوية وأحْكَمَ سيطرته على دولة الإسلام ذهبَ إلى الكوفة التى كانت مَعْقِل الدعوة لعلىّ وخطبَ فى أهلها خطابا تَناقلته كتب التاريخ الإسلامى. وأهم ما جاء فى هذا الخطاب هو سؤال طرحَه على أهل الكوفة يقول فيه: "أترَوْنَنى قاتلتكمْ على الصلاة والزكاة والحَجّ، وقد علمتُ أنكم تُصَلونَ وتزكّونَ وتحجّون؟ إنما قاتلتكم لأتأمّرَ عليكم وقد أقدَرَنى الله على ذلك وأنتم كارِهون".

ومعنى الكلام أنه لم يُقاتل أنصار علىّ وآل البيت بسبب اختلاف فى

الدين أو لأنهم لا يؤَدون ما أمَرَ به الإسلام من صلاة وزكاة وحَج لبيت الله، لكنه قاتلهم لسبب واحد هو أن يَتأمَّر عليهم، يعنى ليصبح أميرهم أو بمعنى آخر ليكون الحاكم رغم أنفهم. وبعد هذا الاعتراف الخطير بأن الموضوع لا علاقة له بنُصرة الإسلام أو بإعلاء كلمة الله فى الأرض وبتثبيت أركان الدين وإنما الموضوع كله مجرد صراع على السلطة، وَضعَ معاوية بذرة فى غاية الخطورة ظلت مهيمنة إلى يومنا هذا على الثقافة العربية والإسلامية حين أكّد بثبات أن الله هو الذى "أقدَرَه" أى أن الله هو الذى "مَكّنه" وبالتالى فإن الله هو الذى يجعل الحاكم حاكما وهو الذى يجعله ينتصر على خصومه، وبالتالى فمن يعترض على السلطان إنما يعترض على إرادة الله.

وقد اشتهر عن الأمويين من بعد معاوية قولهم: "إنما تَجرِى أعمالنا بقدَر الله". وكانوا يقولون ذلك تعليلا لعمليات القتل والذبح والتنكيل التى كانوا يرتكبونها ضد أعدائهم وكل من تسوِّل له نفسه الخروج عليهم أو الاعتراض على مُلكهم.

ولا أود الاستفاضة فى الأمثلة وأكتفى باثنين بارزين أولهما ما حدث فى نهايات خلافة معاوية عندما ظهر مناخ غير مؤيد من جانب البعض لتولية ابنه اليزيد الخلافة من بعده لأن العرب لم يكن لهم عَهدٌ بتوريث الحكم فقام أحد رجال معاوية ويُدعى يزيد بن المقفع وقال "أمير المؤمنين هذا" وأشار إلى معاوية "فإن هَلك فهذا" وأشار إلى اليزيد "فمن أبَى فهذا"

وأشار إلى سيفه" فقال معاوية: "إجلس فإنك سيد الخطباء" (العقد الفريد ج 2 صفحة 307)

مثال آخر من زمن لاحق وهو المعز لدين الله الفاطمى فاتح مصر الذى كان يدَّعى أنه من نَسْل فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد وعندما سُئل عن حَسَبه ونَسَبه نَثَرَ على الحاضرين الذهب قائلا: "هذا حَسَبِى"، ثم لوَّح بسيفه قائلا: "وهذا نَسَبِى".

وسواء قيلتْ هذه العبارات حرفيا هكذا أو بنفس هذا المعنى فإنها تَعكِس ثقافة الجبر والإكراه التى هيمنت ولا زالت تهيمن على العقل العربى.

وكان شيوخ السلاطين يُغلّفون هذا الجبر الدُنيوى بغطاء دينى شرعى حتى يتقبّله العامة. والنتيجة المستخلَصة من هذا الفكر هى ضرورة الإذعان التام للحاكم على أساس أنه قدَر مكتوب وأنه اختيار من عند الله. ويَنتج عن هذه الاعتقاد مجموعة من القناعات الأخرى مثل عدم الخروج على الحاكم مهما كانت الأسباب وعِصْمته من الخطأ وتفوقه الشخصى على كافة الرَعيَّة بل وارتقائه فوق مستوى البشر.

وإذا كانت ثورة 25 يناير فى مصر ومن قبلها الثورة الشعبية فى تونس قد زلزلت هذه القناعة من جذورها وثار الناس على الحاكم لا باسم حاكم آخر أفضل منه ولا باسم عقيدة دينية تختلف عن عقيدته، وإنما ثاروا عليه من أجل الحرية ورفضا لجبروت السلطة وظلمها للناس، فإنه من الممكن أن نؤكد بعد مرور أكثر من عامين على الثورة أن عقيدة الجبر لا زالت

مهيمنة على الضمير الجماعى للشعوب فى مصر والعالم العربى حتى بعد أن أطاحت الثورات ببعض رموز الطغيان.

وفى مصر سرعان ما وَجَدنا البعض يقوم بعملية إحْلال شخص مبارك فى المجلس العسكرى ويرى فى هذا الأخير المَلاذ الوحيد وحامى الوطن من كل الشرور والمُنقذ والمخلّص المبعوث من العناية الإلهية ثم وجدنا عند البعض عملية إحلال المجلس العسكرى فى شخص الرئيس المنتخب محمد مرسى.

ويخطىء من يتصور أن الجبر هو مجرد الإكراه البَدَنى وقطع الرقاب لإخراس المعارضين وإلجائهم إلى الجُحور. فقد أدرك الحكام أن القهر البَدَنى لا بد أن يَقترن بقناعة جماعية تجعل الرعية تتقبل طغيان الحاكم وظلمَه للعباد. وكان هذا هو دور شيوخ السلطة فأطلق الحكام أيديهم وألسنتهم لبثّ مفاهيم نابعة من عقيدة الجبر تدفع الناس إلى تقبل نوعية الحياة الصعبة التى يُعانون منها وكافة المشكلات التى يواجهونها من فقر ومرض انطلاقا من فرضية الجبر الإلهى.

وسوف أستشهد بمقولة رأيتها متداولة منذ فترة على الفيسبوك هى: "ابتسِمْ.. فإن رزقك مَقسوم وقدرَك مَحسوم" وهى نغمة طالما تغنّى بها شيوخ السلاطين وروَّج لها الشيخ محمد متولى الشعراوى كما سنرى فى الفصل المخصص له لاحقا.

وتبدو هذه الجملة للوهلة الأولى وكأنها تتضمَّن قدرا كبيرا من الحِكْمة والخبرة بالحياة والإيمان المطلق بالقدرة الإلهية. لكن من يتأملها يتضح له

أنها نزْناز يَنخُر فى العقل ويؤدى إلى نتائج وخيمة وإلى سلوك تواكُلى وإلى منهاج للحياة لا يمكن أن تتطور المجتمعات إلا بعد التخلص منه.

فإن كان رزق الإنسان مَقسوما وقدَره مَحسوما فإن الاستنتاج التلقائى المنطقى هو: ولماذا أبذل أى مجهود؟ لماذا أعمل ولماذا أسعى وأتعبُ نفسى لتحسين أوضاعى المادية والاجتماعية؟ فكل شىء مكتوب مسبقا ومهما فعلت فليس بوسعى أن أغير إرادة السماء. والإنسان الأكثر رقيا وثقافة قد يقول لنفسه إن الله قد حَجَبَ عنه ملكة التنبؤ بالمستقبل حتى أنه حجبها عن رسوله محمد بدليل الآية التى تقول: ﴿لو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ﴾. فلو أن سيدنا محمد لا يعلم الغيب فمن باب أولى أن أى إنسان عادى لا يعرف ما يخبّئه له المستقبل.

وإذا كان الله اختار أن يَحرم الإنسان من معرفة مصيره ونتائج أعماله فإن العاقل يستنتج من ذلك أنه يريد من كل إنسان بذل أقصى قدر من الجهد والتفانى فى العمل حتى تكون لديه فرصة أكبر لتحقيق غاياته، وليس أن يَرْكن إلى الكسل والتراخى على أساس أن أى عمل سيبذله لن يغيّر من الأمر شيئا لأن "كل شىء مكتوب مسبقا"، وبالتالى فمن حق التلميذ أن يلعب طوال العام ثم يتوقع النجاح، ومن حق الموظف أن يتكاسل ويتراخى فى أداء مهام وظيفته، وقد يقوم المقاول بغش الأسمنت وعندما تقع العمارة يقول إن هذا هو القَدَر وأنها إرادة الله الذى لا رادّ لقضائه.

صحيح أن هناك أحاديث ومقولات توحى بعكس هذه النظرة من أشهرها "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" إلا أن فكرة القدَر المحتوم تنتصر دائما فى عقول الناس ويُغذيها علماء السلطة فى كل

عصر وزمان لأنها تعفى الحاكم من مسئولياته كما أنها تتماشى مع طبيعة الكسل العقلى الذى تتميز به المجتمعات المتخلفة.

والنتيجة أن عامة الناس والغالبية العظمى منهم فى المجتمعات المُتَخَلّفة مثل مجتمعاتنا العربية يَجْنحون إلى التفكير بهذا الأسلوب التواكلى بل يرفضون فكرة حرية الاختيار سواء بالوعى أو باللاوعى. وهذا هو المفهوم السائد لدى السواد الأعظم من المسلمين الذين ينتمون للأسف الآن إلى دول العالم الثالث المتخلفة وِفقا لمؤشرات التقدم والتأخر العالمية. أما الدول الإسلامية التى عرفت نهضة كبيرة مثل ماليزيا وتركيا فهى لم تنجح وترتقى إلا بالتخلص من تلك المفاهيم التقليدية. ومع ذلك فإن هذه الدول لم تصل إلى مستوى المجتمعات الغربية والآسيوية التى بلغت أعلى درجات التقدم وأتاحت لشعوبها كل أسباب الراحة ووسائل الاستمتاع بالحياة مثل الصين واليابان وغيرهما.

ومن أفضل من أعْمَل عقله وكتبَ فى هذه الإشكالية، أى إشكالية حرية اختيار الإنسان، هو الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر (1905 – 1980). وسارتر ليس مفكرا عاديا إنما هو من أبرز شخصيات القرن العشرين. وعندما مُنح جائزة نوبل للأدب عام 1964 رفضها لإنه كان يعتبر أن جائزته الحقيقية من جماهير القراء وليس من مؤسسة يعتبر أنها تمثل الحكومات والمؤسسات السُلطوية.

وعندما قامت ثورة الطلبة فى فرنسا عام 1968 كان لسارتر موقفا مناصرا للثورة ونزل إلى شوارع باريس ليتظاهر مع الشباب. وقد ذهب

وزير الداخلية الفرنسى آنذاك إلى الزعيم الفرنسى الكبير شارل ديجول بمذكرة تقضى بإلقاء القبض على سارتر فأشاح ديجول وجهه قائلا: "لا يمكن لأحد أن يقبض على فولتير". فبرغم أن سارتر كان يُقلّب الناس عليه إلا أن ديجول اعتبر أن سارتر بحجم وقامة فولتير، وهذا الأخير كما نعلم من العلامات البارزة فى تاريخ الفكر البشرى ومن أكبر المناضلين من أجل الحرية.

وعندما مات سارتر عام 1980 مَشى فى جنازته أكثر من 50 ألف مُشيّع فى باريس وهى أكبر جنازة لفيلسوف فى التاريخ إلى يومنا هذا.

وكان رأى سارتر أن الإنسان حرّ حتى وهو مُعتقل فى السجون وكتبَ أنه شعر بحريته الحقيقية عندما كانت فرنسا مُحتلة من الألمان خلال الحرب العالمية الثانية وهو يقصد بهذا أنه كان حُرّا فى تقبل الاحتلال والتعامل معه أو الوقوف عاجزا صامتا أو مقاومته.

فمفهوم الحرية عند سارتر يقوم على الاختيار. وهو يقول إنه عندما يصنع الإنسان سكّينا فهو يصنعه وفى مخيلته غَرَض مُسبَق وهو قطع ما يريده أو مساعدته فى تناول الطعام. فالسكين له مهمة مُحدّدة ومعروفة سلفا وهو قد صُنع من أجلها.

أما الإنسان فهو يولد دون أن يكون هناك غرض مُسبق معروف لخلقه وبالتالى فإنه يتعيّن عليه أن يُحدِّد بنفسه ما يفعله فى الحياة. ويظل الإنسان فى حالة اختيار مستمر طوال عمره فيكون شخصا راقيا بأفعاله ومواقفه أو يكون أقرب إلى الحيوان فى بعض الأحيان. وحتى حين تحرّكه الأقدار

وتأتى بما لا يشتهى فهناك عادة جانب من الاختيار الشخصى، فالتلميذ الذى يحلم بدخول إحدى الجامعات ويفشل فى ذلك قد تقاعس عن أداء واجب الدرس والتحصيل بما يلزم لقبوله بالجامعة وبالتالى فإن عدم قبوله ليس قدَرا مُسْتقلا تماما عن إرادته.

وكانت النهضة الأوروبية قد قامت على أكتاف الحضارة اليونانية التى ازدهرت قبل المسيح وكانت تلك الحضارة لحظة فارقة فى تاريخ البشرية حيث أفرزت مجموعة من الفلاسفة والمفكرين والأدباء والشعراء وضعوا لبنات الفكر البشرى وكان ألمعهم الثلاثى الشهير سقراط وأفلاطون وأرسطو. وكانت أهم الإبداعات الأدبية لليونان القديمة وأبرزها ملحمة الإلياذة والأوديسية ومسرحيات أرسطوفان وغيره تقوم على فكرة القدَرية وتحكّم القدر فى مصير الإنسان.

ولعل من أهم رموز الأبطال الذين ساروا فى الاتجاه الذى حدّدته الأقدار هو أوديب الذى قتَل أباه وتزوج من أمه ثم انتحر عندما عرف حقيقة ما فعله. وسوف أتناول فى فصل مستقل فكرة "قتل الأب" لكن ما يهمنى هنا هو جانب القدرية فى قصة أوديب.

ومذهب سارتر الذى سُمِّى بالوجودية هو خروج على أرث القَدَرية اليونانية وتطوير لفكر النهضة الأوروبية التى وضعت الإنسان فى قلب المنظومة الكونية وفجّرت طاقاته الإبداعية وإمكانياته التى كَبَتَها الفكر التقليدى الذى هيمن على الحضارة الغربية طوال العصور الوسطى. وكان هذا الفكر يقوم على أن الإنسان مسيَّر ولا يملك من نفسه شيئا وأن هناك

إرادة عليا تتحكم فى كافة جوانب حياته وفى موته وليس من حقه أن يتمرد على قدَرِه أو يسعى لتغييره.

ومن يَتَوغل فى أعماق المجتمعات العربية والإسلامية يتكشّف له أن مفاهيم القدَرية والمصير المحتوم وعجز الإنسان وانصياعه الكامل للقوى الخفية لها مفعول السحر على العقلية الجماعية وأن الغالبية مقتنعة أنها مهما بذلت من جهود فلن تنال أكثر مما هو مكتوب فى السماء. وتأسيسا على ذلك فقد تبلور فى اللاوعى الجماعى للشعوب أن المجهود والتعب والعرق لا يساوون التضحيات والحرمان من قبل الإنسان.

وتلعب هذه القناعة دورا فى تدمير إرادة العمل والحركة، ولذلك فإن الكسل وعدم الانضباط وعدم الدقة والتراخى وغياب الاتقان فى العمل ليست كلها سمات هابطة من السماء على الشخصية العربية لكنَّ لها جذورا نابعة من المفهوم السائد للدين والذى قام علماء الحكام والسلاطين ببثه وتغذيته فى وجدان المُؤمنين عبر التاريخ.

وفى كتاب "الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر" يقول د.أحمد زكريا الشلق حرفيا: "وَرَدَ بالمصادر أن بونابرت عندما كان يُجالس العلماء والمشايخ كان يصوّر نفسه على أنه المهدى المنتظر للمسلمين، وأنه أعلن فى بيان له إلى سكان القاهرة فى 21 ديسمبر 1798: "إن العاقل يعرفُ أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته، وأن من يشك فى ذلك فهو أعمى البصيرة، وأَعلموا أيضا أمّتكم أن الله قَدَّر أن أجىء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها.. وأعلموا أمتكم أن القرآن

العظيم صرَّح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل..".

ولو قال بونابرت مثل هذا الكلام فى بلاده فرنسا لضرَبَه الناس بالأحذية على أمّ رأسه ولّما وصل إطلاقا إلى ما وصل إليه لأن عقلية الشعب هناك كانت قد تخلصت من رواسب الماضى بفضل ثورة 1789 وآمنت بأن الحاكم لا يأتى بإرادة إلهية. وقد استخدم الرجل فى فرنسا أساليب أخرى للوصول إلى الحكم وكانت انتصاراته العسكرية هى سنده الرئيسى للبقاء على قمة السلطة التى لم يتركها نهائيا إلا بعد هزيمته فى معركة واترلو فى 18 يونيو 1815.

لكن دَهاء بونابرت وحِنكته السياسية جعلاه يتحدث مع أهل مصر بمنطقهم وباللغة التى يفهمونها. ويبدو أنه قال لنفسه إنه إذا كان سادة المسلمين يستخدمون القرآن للسيطرة على الناس فما الذى يمنعه هو من أن يَستخدم نفس السلاح ويلعب على وَتر الدين؟ وإذا كانت الشعوب الإسلامية تُؤمن بالجبر وبأن الحاكم يأتى بإرادة السماء فلماذا لا يستفيد هو من هذه القناعة ويكون هو الذى اختارته العناية الإلهية ليحكم مصر؟

وأود أن أثير هنا قضية أعتبرها من أخطر مظاهر الجبر فى ثقافتنا وهى اللغة. وأرجو ألا تَتعجّل فى الحُكم أيها القارىء العزيز بأنه لا توجد أية علاقة بين اللغة والجبر وأننى أقحم هذه القضية إقحاما على هذا الفصل. لكنه لو فكّرنا قليلا سنكتشف أنَ اللغة من أهم الأدلة الملموسة على عقيدة الجبر وأنا أعتبر أن العربية الفصحى على وضعها الحالى تُعد رمزا من أهم رموز الإكراه والإرغام المفروضة على العقل العربى.

ومن يتعلم القراءة والكتابة في عالمنا العربي مَجبور على استخدام لغة غَرِيبة عنه وعن فِطرته وعن سليقته اللسانية وعن حياته اليومية. فكل شعوب البلدان العَربية بلا استثناء تتحدَّث لهجات خاصة بها هي خليط بين العربية الفصحى والعديد من اللغات المحلية القديمة. وهذه اللهجات هي نتاج قرون طويلة تطوَّرت وتبلورت فيها لتتواءم مع واقع الحياة المُعاشة ولتكون تعبيرا صادقا عن حياة كل مجتمع كما هو الحال بالنسبة لكل لغات العالم.

وبالسليقة وبالفطرة يتحدث الناس اللهجة أو اللغة المصرية في مصر والمَغربية في المغرب والسورية في سوريا وهكذا. لكن قانون الجبر المُهَيمن على الثقافة العربية يأبَى هذه الفطرة ويأبى أي مساس بقواعد الفصحى وتبسيطها لتقترب من اللهجات التي يتحدث بها الناس في كل مكان بالعالم العربي. فلا يوجد إنسان واحد يتحدث الفصحى في حياته الخاصة. فهل سمع أحدكم عن رجل يقول لزوجته مثلا عندما يكون جائعا: "أعدِّى لى طعام الغداء يازوجتى الحبيبة" أو أمّ تقول لأولادها عندما توقظهم من النوم في الصباح: "استيقظوا يا أولادى فقد حان موعد الذهاب إلى المدرسة"؟

لا يوجد إنسان طبيعي في أي مكان في العالم العربي يتحدث بهذه اللغة الفصحى في حياته اليومية ولا حتى شيخ الأزهر أو رئيس المجمع اللغوى.

لكن حراس التقاليد يُصرّون على فرض الفصحى في الحياة العامة ولا يستطيع كائن من كان أن يَكتب في الصحف العربية إلا بها ولا أن يكتب الكتب إلا بالالتزام بقواعدها الصارمة ولا أن يَصيغ مذكرة أو طلبا أو

عريضة بأية مصلحة حكومية أو غير حكومية فى أى مكان بالعالم العربى إلا ملتزما التزاما حديديا بقواعد الفصحى.

وهذا الجبر هو قيد مستمر على العقل العربى يضاف إلى القيود والسلاسل الأخرى العديدة التى تحدثنا عنها والتى تحجب الرؤية الصحيحة. وأتوقع أن يتصدى البعض بحجج بالية منها أن كل شعوب العالم بها لغة للتخاطب اليومى ولغة للكتابة وغير ذلك من الأباطيل المضحكة. وأرجو من القارىء الكريم الرجوع إلى كتاب "لتحيا اللغة: يسقط سيبويه" ليطلع على ردودى على هذه الأحاجيج التى قمتُ بدَحضِها فى كتابى سلفا قبل أن أقرأ الهجوم عليه لأنى أعلم آليات التفكير التى تحكم العقلية العربية وكنت أتوقع أن يلجأ البعض إلى تلك الحجج الواهية.

وكما قلت فى كتابى المذكور فأنا لا أطالب بإلغاء الفصحى لمصحلة العامية لكنى أطالب بتخفيف قواعد سيبويه وتنقية اللغة من الأحكام الصارمة التى تعداها الزمن مثل المثنى ونون النسوة ونصب المفعول به بالتنوين على سبيل المثال لا الحصر، وهو ما يأباه حراس الماضى ونواطير التراث انطلاقا من منطق "الجبر" حتى وإن احتجّوا بحجج أخرى.

وبرغم سهام النقد التى وُجِّهت إلى شخصى بسبب كتاب: "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبوية" فإننى لا زلت أعتبر الفصحى أحد الأسباب الرئيسية فى حالة تخلف العقل العربى كما أنها رمز من رموز الفرض والإكراه فى حياتنا اليومية.

وإذا أردنا اختزال مِحنة العقل العربى فى فكرة أساسية فهى عجزه

التام عن طرح الأسئلة خارج الإطار الرسمى المفروض بفرمانات دينية من العلماء والشيوخ وأولى الأمر والسادة المهيمنين على كل مجتمعاتنا، وهذا العجز يؤدى إلى وأد الحِس النقدى الذى يُعد الوقود المحرك لتطور المجتمعات.

ومنذ طفولته ينشأ الإنسان فى مصر والعالم العربى وهو ممنوع من تَخَطى محظورات مفروضة عليه فرضا وممنوع عليه الاقتراب من أفكار قرَّرَ حراس العقيدة أنها مُحَرَّمات لا يجوز الاقتراب منها، ومن يفعل ذلك يكون خارجا عن الجماعة وكافرا وزنديقا.

ومن يدرس تاريخ تطور المجتمعات الإنسانية لا بد أن يؤمن إيمانا راسخا بأن إرادة الإنسان هى المُحرك الأساسى للتغيير ولتطور المجتمعات. أما بالنسبة للإنسان العربى فإن قائمة الممنوعات لا نهاية لها وعمليات التخويف والترويع تجعل العقول مشلولة ومرتجفة وعاجزة تماما عن تخطى الفكر التقليدى الاتباعى.

ووسط الممنوعات والمحظورات والمُحَرَّمات وفى مناخ عقيدة الجبر والحظر والإجبار يَنْغلق العقل العربى الإسلامى بالضبة والمفتاح ولا يمكن لأى "طفاشة" محلية أو مستوردة أن تساعد على فتحه ومعاونته على استيعاب حقائق الحياة المُسْتَجَدة.

وباختصار فإنه طالما لم يؤمن الإنسان بحرية الاختيار وبامتلاك مصيره على ظهر الأرض بين يديه وبقدرته على تغيير الواقع وتحديد مسار حياته، وطالما يعيش تحت وطأة فكرة الجبر وأن إرادته مَسلوبة من خلال قوى غيبية تقدّر وتقرر مصيره سلفا، فسوف يظل عبدا للسلطة العليا المتمثلة فى

طبقة الحكام وعلماء السلاطين التى تستخدم الدين والتقاليد لكى تَقمَع عقله وتُلغى إرادته.

ثنائية الحلال والحرام

منذ بداية تكوين المجتمعات الإنسانية انْطوَت الطبيعة البشرية الفطرية على النظرة الثنائية للكون وللحياة. ويَكاد علماء الانثربولوجيا يُجْمِعون على أن تَعَاقب النهار والليل وما يَتبَعه من توالى الضوء والظلام هو التفسير الرئيسى لهَيمنة هاجس الثنائية على عقل الإنسان البدائى ووجدانه. وقد رَسَّخت ثنائية الحياة والموت هذا الهاجس فى اللاوعى الجماعى للمجتمعات البشرية الأولى.

وقد اتخذت هذه الرؤية شكل ديانة اسمها المانوية كانت موجودة فى عصر الرسالة وكانت تقوم على التناقض بين الخير والشر والنور والظلام. وهناك كلمة فى اللغتين الانجليزية والفرنسية هى "مانيكييزم" أى المانوية مُشتقة من هذه الديانة وتُطلق على النظرة التى تَقتصِر على حَلّيْن لا ثالث

لهما لأية قضية وهى ترمز عادة إلى ضيق الأفق والمَحدودية.

وكلما نَمَت المجتمعات وارتقت كلما ضعفتْ حدَّة النظرة الثنائية وأدرك العقل البشرى تعقيدات الحقيقة وتعدّد وجوهها ومشاربها. فالرؤية الثنائية الإقصائية يمكن اعتبارها أحد معايير تَخَلف المجتمعات لأنها أقرب إلى الفطرة الغرائزية، لكنها أبعد ما يكون عن واقع الحياة وقواعد الطبيعة.

ومشكلة ثقافتنا أنها لا زالت شديدة التمسّك بتلك النظرة الثنائية المتمثلة فى التضاد بين نقيضين مثل الملاك والشيطان والكافر والمؤمن ودار الإسلام ودار الحرب، ولا تَقبل أن يكون إنسان ملاكا وشيطانا فى ذات الوقت، أو بمعنى أدقّ أن تكون بداخله نزعات الملاك والشيطان تظهر وفقا للأحداث والمواقف المختلفة، وهو الأقرب إلى الفطرة والطبيعة البشرية.

وهناك بيت شِعر لأبى فِراس الحَمدانى فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها "أراكَ عَصِىَّ الدمع شيمتك الصبرُ" يتباهَى فيه بتلك الرؤية "المانوية" قائلا:

ونحنُ أنـاسٌ لا تَوَسُّط بيننَا لنا الصَدْرُ دُونَ العالَمِين أو القَبرُ

وقد نَجَحتْ الحضارة الأوروبية فى التخلص شيئا فشيئا من النظرة الثنائية الخالصة للكَوْن والحياة وخاصة بفضل عصر النهضة. وربما كانت طبيعة المناخ فى أوروبا أحد العوامل التى أسْهَمت فى التخفيف من هذه الرؤية والتخلص منها حيث أن هناك أربعة فصول واضحة المعالم هى الصيف والربيع والشتاء والخريف. أما فى الجزيرة العربية وحتى فى مصر

فإن المناخ ينقسم إلى فصلين بصفة أساسية هما الصيف والشتاء.

وعندما ذهبتُ للإقامة فى فرنسا لم أكن أفهم معنى الفصول حتى رأيت بعينى أوراق الشجر تتساقط وتذبُل فى الخريف وتزدهر فى الربيع بالإضافة إلى علامات أخرى مناخية تختلف كثيرا عما يحدث فى الشتاء والصيف.

ولا شك عندى فى أنه كان لهذا التدرّج المناخى أثر على العقلية الأوروبية ساعد أبناءها نفسيا على الخروج من ثنائية "الأبيض والأسود" وإدراك الظلال ورؤية الحقيقة بكل تنوعاتها ووجوهها وزواياها بدلا من التمسك بفكرة أنه ليس للحقيقة سوى وجهان لا ثالث لهما.

ومع تطور ظروف الحياة نَمَت لدَى كل مجتمع من المجتمعات البشرية مجموعة من المرجعيات للحُكم على الأشياء على رأسها منظومة الأخلاق والقيم العامّة التى تبلورت عبر عشرات الأجيال ومئات السنين من التجارب والخِبرات، وترجمها الإنسان فى القوانين الوضعية التى تَفصِل بين الناس فى الخصومات والمنازعات.

أما المجتمعات العربية الإسلامية حاليا فقد أصبحت مرجعيتها الأساسية بل الوحيدة هى المرجعية الدينية وتحديدا مرجعية الحلال والحرام. فكل قضية تُطرَح على المستوى الشخصى أو المُجتَمَعى يقابلها سؤال محوَرى: هل هذا حرامٌ أم حلال؟ فإن كان حلالا فعلناه وإن كان حراما تركناه. والمشكلة أن امتياز الفَصْل بين الحرام والحلال عادة ما يكون حِكرا على شيوخ السلاطين وعلماء السلطة وحراس الماضى المُتَجَمّد.

وإذا أردنا تقريب فكرة الثنائية الصارمة فى أذهاننا بمثال مَلموس فإن الإنسان فى ثقافتنا إمّا مؤمن أو كافر ويستحيل أن يكون غير هذا أو ذاك.

أما الثقافات الأخرى فلها نظرة مختلفة وتتقبّل أطيافا كثيرة للإيمان. فمن المُمكن للإنسان عندهم أن يكون مُؤمنا بالله دون أن يكون مُؤمنا بالأديان، ويُسَمَّى "ربّانى"، ويُرَجَّح أن الفيلسوف فولتير كان من هؤلاء.

ومن الممكن أن يكون الإنسان مؤمنا بكافة الأديان لأنها نزلت كلها من السماء ويحاول أن يستوحى أفضل ما فى كل دين ويُسمّى ذلك "سنكريتزم".

كما أن هناك من يقولون إن هناك أدلة على وجود الله من ناحية، لكن هناك من ناحية أخرى أدلة على عدم وجوده وأنهم عاجزون عن الفصل فى هذا الأمر ويقولون "إننا لا ندرى" وقد اشتُقَّ من ذلك الموقف تعبير "اللاأدرية".

وكل هذه المواقف عندنا هى نوع من أنواع التَحَذلق و"الفزلكة" المقصود منها إخفاء الكفر والزندقة. مع أنك لو وَصفتَ شخصا يَجهر بالربَّانية أو باللاأدرية فى الدول المتقدمة بأنه "كافر" فسوف يعترض الجميع على هذا التوصيف ويرفضونه رفضا قاطعا وأولهم صاحب الشأن نفسه لأنه لا يعتبر نفسه كافرا.

وهذه الثنائية البدائية قد تُريح أصحاب العقلية التقليدية المَحدودة الأفق والقائمة على ثقافة الأبيض والأسود كما أثبتُ فى كتاب "تحطيم

الأصنام"، كما أنها قد تُريح أصحاب العقول البسيطة والمُسَطحة التى لا تقوى على التعقيد والتعدّدية. لكنها مع ذلك تطرح إشكاليات عديدة منها أن الأئمة والعلماء أنفسهم اختلفوا كثيرا على مرّ التاريخ فى تحديد الحلال والحرام على وجه الدقة فى أمور عديدة، ولا زالوا إلى اليوم يختلفون فى فتاويهم حول أمور مُلتَبسة لم تظهر فى عصر الرسول واجتهد فيها السلف الصالح وغير الصالح عبر القرون.

لكن أخطر ما فى هذه الثنائية فى رأيى هى أنها تُلغى تماما دور العقل وتَضَع على الرَف ترسانة القيم والأخلاقيات والمُثل العليا والقواعد والقوانين التى تَبَلورت فى المجتمعات الإنسانية من خلال تراكم الخبْرات والتجارب منها المرير وبعضها الآخر باعث على الأمل والتفاؤل. فإذا أخذنا مثلا الحربين العالميتين فى القرن العشرين يتضح لنا أنهما قَلبَتا النظام الأخلاقى الإنسانى رأسا على عقب، ويستحيل أن تكون نظرة الإنسانية للحياة بعد الحربين مثلما كانت قبلهما. لكن ثقافتنا لا تعترف بذلك وتعتبر أن المثل والقيم الأخلاقية لا تتغير ولا تتطور لأى سبب من الأسباب وتحت أى ظرف من الظروف.

كذلك فإن مرجعية الحلال والحرام بناء على فتاوى الشيوخ تَعنى أن الإنسان عاجز عن التفرقة بين الحق والباطل وبين الخير والشر بعقله وبخبراته وبحَدْسه ومفهومه للدين. وبناء على ذلك فعليه أن يُلغى عقله تماما ويلجأ إلى شارِحى النصوص الدينية ويُسْلِم عقله إلى مُفسّرى الشريعة ليُدرك الصواب من الخطأ ويعرف كيف يتصرف فى أى موقف من مواقف الحياة.

والمُعضلة هي أن معظم آيات القرآن متشابهات كما جاء بكتاب الله نفسه: ﴿به آيات مُحْكَمات وأخَرُ مُتشابهات﴾ ولذلك بالتأكيد حكمة إلهية لا بدّ أن نفكر فيها. والآيات المُحكمات مَعْلومة ولا تقبل الكثير من الجدل مثل ﴿كُتِبَ عليكم الصيام﴾ أو﴿كُتِبَ عليكم القتال﴾ أو ﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾.

أما كلمة متشابهات فمعناها أنها آيات لا تُعَبِّر بوضوح وجلاء عن معنى واحد بل من معجزات القرآن أن الكلمة الواحدة قد تَحمل عدّة معانٍ، وقد دبّ الاختلاف بين كبار العلماء والمفسِّرين منذ اليوم الأول أى بعد رحيل الرسول عن الحياة الأرضية وانقطاع الوحى الذى كان يفصل فى الأمور المُبهمة التى تتشابَه على المؤمنين.

ومن هنا فهناك قول مأثور عن عرب الجزيرة بأن القرآن "حَمَّال أوْجُه" أى أنه يَحتمل عدة معان يمكن أن يستخرجها الناس فى كل عصر وفقا لظروفهم ومصالحهم وأوضاعهم الاجتماعية والجغرافية والتاريخية، ولذلك قيل إن القرآن صالح لكل زمان ومكان.

وإذا أردنا تفسيرا لبحار الدم التى سالتْ بغزارة فى تاريخ الأمة العربية الإسلامية حتى فى أوج عظمتها فسوف نجد أن دافعها الرسمى المُعلن هو الاختلاف فى تفسير الدين وتأويل الشريعة، وسببها الرسمى هو ظهور مفاهيم متعارضة بل ومتناقضة للحلال والحرام بين الفرق المتناحرة. فغالبية المعارك لم تَقم بين المؤمنين والكفار لكنها قامت بين المؤمنين بعضهم البعض لأن كل طرف كان راغبا فى أن يفرض على غيره مفهومه الخاص لكلام الله وأحاديث الرسول بقوة السلاح. وكما قال علىّ بن أبى

طالب خلال معركة صفين: "قاتلناهم على التَنزيل ونُقاتلهم اليوم على التأويل".

وقد دَفَعَ ذلك الشاعر الفذ أبو العلاء المعرى إلى أن يقول بيت شعره المعروف:

إنّ الشَرائعَ أَلقَتْ بيننا إحَنًا وعَلمَتْنا أفانينَ العَداواتِ

وتاريخ المسيحية يؤكد هو الآخر صِحة رأى رَهين المَحبَسين ويُبَرهن على بصيرته النافذة. فباسم المسيح، وهو رسول المَحَبة والسلام، قام الملوك والأباطرة والأمراء فى أوروبا بسفك دماء الأبرياء واقترفوا أبشع المجازر فى تاريخ البشرية. وقد كرَّس المؤرخ البريطانى جون داوْلنج جانبًا من حياته لإحصاء ضحايا التطرف المسيحى وكتب فى عام 1845 مؤكدا أن "هناك 50 ميلون من أبناء الأسرة الإنسانية تعرَّضوا للقتل والذبح باسم الدين المسيحى خلال حقبة محاكم التفتيش".

وثنائية الحرام والحلال مرتبطة بثنائية أخرى هى الجنة والنار حيث أن من يلتزم بالحلال يذهب إلى الجنة ومن يقع فى محظور الحرام يكون مصيره جهنم، مع أن المسيحية بها مكان اسمه المَطهَر هو مَوْقع بين الجنة والنار يَنزل به كل من لم تَرْجَح حَسَناته أو سيئاته فى ميزان المحاسبة. وبالتالى فهو يبقى فى المطهر لفترة اختبار وترقب ولتتطهَّر نفسه حتى يُثبت أحقيته فى الذهاب إلى الجنة أو يسقط فى غياهب النار.

والخطير أن الناس يَفصِلون تماما بين الحلال والحرام من ناحية وبين

القيم والأخلاق من ناحية أخرى. فما يُفتى شيخُهم بأنه حرام فإنهم يعتبرونه حراما ولو كان عقلهم وضميرهم يأبيان ذلك والعكس صحيح، وهناك مقولة شهيرة للأشعرى بأنه لو قال الله إن الكذب حَسَن لكان الكذب حسناً.

وكم من المآسى تقع فى مجتمعاتنا العربية الإسلامية منذ قرون بدَعوَى الحرام والحلال. فماذا تقول مثلا فى رجل يُطلّق زوجته عندما تَكبَر فى السن وبعد أن أفنت حياتها فى تربية أولادهما ويتركها بدون إمكانيات ليتزوج غيرها ثم يقول مُبرِّرا هذا العمل الذى يتناقض مع الأخلاق والمثل العليا إن الطلاق "حلال" والزواج من أخرى "حلال"؟

وعندما يكون المَحكّ الأوحَد هو الحرام والحلال طِبقا لأحكام وتفاسير شيوخ يُصْدِرون فتاويهم بناء على ما تركه الأقدَمُون الذين عاشوا فى ظروف تختلف تماما عن ظروف القرن الحادى والعشرين فلا بد أن يكون هناك خلل واضطراب فى المجتمع. وأسمَعُ أحيانا أسئلة يطرحها البعض على شيوخ الفتاوى يَشيب لها الشعر كشخص يسأل هل يَصِل أبويه برغم أنهم جاروا عليه وما حكم الدين فى ذلك؟

وشخص مثل هذا انعدمت فيه الأخلاق والمروءة. فهو ينتظر حكم الشرع والدين فى مسألة من المفترض أن تكون محسومة لدى أى إنسان سوىّ والمفترض أن تكون معاييره فيها هى الأخلاق والفطرة والعادات والتقاليد والقيم وليس فقط معيار الحلال والحرام وفقا لتفسير شيخ ذى ثقافة محدودة للغاية.

وكان للمعتزلة رأى معروف فى "الحَسَن" و"القبيح" وهو رأى يُثبت مدى تناقض فكرهم مع الفكر التقليدى الذى انتصر حتى الآن فى معركة تفسير الدين بفضل مساندة الحكام والسلاطين وأصحاب الجاه والمال والنفوذ. والرأى المُهيمن على الفكر التقليدى يقوم على آية كريمة أخرِجَت من إطارها الذى يدور حول الفيء وتوزيع الثروات بين الفقراء والأغنياء وهى تقول: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر7).

وتُعدّ هذه الآية بالنسبة للفكر التقليدى السَنَد الأساسى لتعزيز ثنائية الحرام والحلال وإلغاء العقل والقيم الإنسانية والأخلاق وحتى القوانين والدساتير.

لكن المعتزلة فهموا الدين بشكل مختلف وجاءوا بفكر معاكس للتيار التقليدى العام كعادتهم عندما قالوا قولتهم الشهيرة "ما حَسَّنه العقلُ فهو حَسَن وما قبَّحه فهو قبيح" فدَقوا بذلك مسمارا فى ثنائية الحرام والحلال وفى فكرة أن كل شيء فى الدنيا لا بد أن يُقاس بمعيارهما فقط وبناء على تفاسير الشيوخ التقليديين.

ومن يفكر قليلا يتضح له أن هذه الثنائية ما هى فى حقيقة أمرها إلا أحادية مُقَنّعَة. فمَن يُؤمن بأن أى تصرف إنسانى إما حرام أو حلال فمن البديهى أنه يَسْتمسك بالحلال كما يراه ويَلفَظ الحرام كما يفهمه هو، أو كما لقنه إياه الشيخ أو الإمام الذى يَسير هذا الشخص فى ركابه.

وهذه النوعية من الفكر تَحمل فى جوهرها رفضا جذريا لحرية الرأى والتعبير والاختيار. فالعقيدة الثنائية معناها وجود الخير والشر ولا شيء

غيرهما. والمفترض فى الجميع اختيار الخير وبالتالى فإن من يختار شيئا لا يتفق مع قناعات الجماعة فهو خارج عليها.

لكنه لو كانت التفرقة بين الحلال والحرام بهذه السهولة وجلية كل هذا الجلاء ما رأينا الخلافات والمخاصمات بين الأئمة والمشاحنات بين العلماء والانقسامات بين الفرق وما رأينا الحروب الطاحنة والاقتتال المستمر بين المسلمين.

.

وكثيرا ما نطرح على أنفسنا سؤالا حائرا: لماذا لا تنجح الديمقراطية فى الدول العربية؟

وقد تزايدت حَيْرتنا بعد أن أدَّت ثورات الربيع العربى إلى إسقاط بعض الدكتاتوريات العتيدة فى المنطقة وتصوّر الجميع أن الطريق إلى الديمقراطية أصبح مفروشا بالورود وأنها صارت على مرمى حجر، لكنهم تناسوا أخطر العوائق والحواجز وهى الحواجز الثقافية والنفسية والتربوية النابعة من التراث والتقاليد.

وأنا أُعتبر أن ثنائية الحرام والحلال الجامِدة من أهم العقبات التى تقف حائلا دون تَقبّلنا لقواعد الديمقراطية. فإذا كان التيار أو الحزب الذى أصَوِّتُ لصالحه يَسعَى لتطبيق الشريعة وإعلاء الحلال فإن الفريق الآخر يُمَثل الباطل والحرام بالضرورة. فكيف أقبلُ أن أترك السلطة والحكم بين أيدى هذا الحزب المنافس وهو عدو الحلال وحَليف الحرام؟

فبمنطق الحلال والحرام لا سبيل للتفاهم أو الحلول الوسط بل يتوجب على كل طرف أن يتمسَّك بوجهة نظره ويدافع عنها حتى الموت ويُفنى

الطرف الآخر أو يسحقه لأنه رمز للشر والحرام.

أما الديمقراطية فتقوم في جوهرها على توافق الآراء والسعي لحلول وسط والاقتناع بأنه لا يُوجد طرف يُمثل الحلال وآخر يُجسِّد الحرام.

وكلامي هذا لا يعني أنه لا توجد حقائق ثابتة وقيم ومثل عليا لا بد أن تتمسك بها المجتمعات. لكنه علينا أن نعي أن كل هذه الحقائق والقيم هي عبارة عن مبادىء تتبلور عبر الزمن وهي قابلة دائما للتطور والمراجعة، والأهم هو أنها ليست حِكرا على طرف دون آخر.

ومن أخطر الآفات التي تنخُر في نسيج المجتمعات العربية هي آفة التعصب الذي أعتبرُه الابن الشرعي لثنائية الحلال والحرام. فالتعصب هو اعتبار أنك دائما على حق وأن الطرَف الآخر دائما على خطأ، وينتج عن ذلك كراهية ونفور من كل من يكون على الطرف الآخر من المعادلة الثنائية. التعصب يجعل صاحبه على استعداد للقتل والذبح وارتكاب أبشع الجرائم باسم الدين لاقتناعه بأنه يدافع عن الحلال في حين أن الطرف الآخر يُساند الحرام.

وما دُمنا قد تَطرَّقنا إلى قضية الديمقراطية فلا بد أن نعترف بأن عمليات التحايل على القانون وتزوير الانتخابات والالتفاف حول القرارات وعدم تطبيقها بحُجَج مختلفة هي سِمات واضحة في مصر ومجتمعاتنا العربية ولا بد أن ندرك أن هناك جذورا قديمة في النفسية العربية تجعل نجاح التجربة الديمقراطية في حاجة إلى إعادة نظر حاسمة لتراثنا.

وهناك قصة رواها طه حسين بأسلوبه الخلّاب في كتاب "على هامش

السيرة" فى فصل بعنوان "الفداء" تدل على النزعة إلى رفض الواقع وقدرة العقلية العربية على التلاعب بالقَدَر إن كان لا يوافق الهوى والمصلحة. فالقدر بالنسبة للمحكومين ورعايا السلطان مصير لا فكاك منه. أما بالنسبة للحكام والسادة فهو وسيلة قابلة لأن يتلاعبوا بها من أجل إخضاع الرعية.

وتبدأ القصة بأن عبد المطلب بن هاشم جدّ الرسول نَذر يوم حفر بئر زمزم بأنه إذا أنجبت زوجته أو زوجاته عشرة أبناء من الذكور فسوف يُضحّى بواحد منهم ويذبحه قربانا للآلهة.

وبالفعل أنجبت زوجات عبد المطلب عشرة أولاد فجمع أبناءه وذهب إلى الكعبة للوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه دون أن يُرغمه أحد على ذلك. وعندما استخدم القداح لاختيار الولد الذى سيلقى المصير المروّع خرجت القَدَح على عبد الله وهو أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه. وثارت ثائرة بناته ونسائه وطالبوه بأن يحتكم إلى الآلهة مرة أخرى فقَرَع القداح بين عبد الله وبين مائة من الإبل.

ويقول طه حسين حرفيا "إن القدح قد خرج بعد لأىّ على مائة من الإبل". و"بعد لأى" معناها بعد جَهد ومَشقة وفيها معنى مرور الوقت. ومن الواضح أن القدح قد خرج فى البداية مرة أخرى على عبد الله، لكن عبد المطلب أعاد الكرّة عدة مرات حتى استقرت القداح على الإبل وهنا توقفت العملية وتم ذبح مائة من الإبل وأفلت عبد الله من الموت.

وأغلب الظن أن هذه الرواية أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة مثلها مثل الكثير جدا من الروايات التى وصلتنا، وليس معنى هذا أنها كلها من

وحى الخيال المَحْض. فالراجح أن مثل هذه القصص لها أساس من الصحة لكن القصة الأصلية مرَّت بأجيال تناقلتها عن طريق الفم والأذن فزادت عليها وطرَحت منها ونسَجَت من خيالها وأجرت لها عمليات تجميل وتطوير واستحداث حتى بلغت أسماع مَن دَوَّنها كتابة بعد أجيال عديدة فوصلت إلينا كما سَجّلها طه حسين.

لكنه فى كل الأحوال فإن العقلية التى وضعت تلك الرواية وأدخلت عليها التعديلات والتحسينات هى العقلية العربية الإسلامية وبالتالى فإنه من الممكن أن نستخلص من الحكاية الكثير من العناصر الحاكمة لهذه العقلية لعل أولها رفض الواقع وهو ما حدث عندما لم يُذعن عبد المطلب لما جاءت به القداح مع أنه تعهَّد صراحة على القبول بحكم القداح والانصياع للقدر. فالعهد الذى قَطعَه على نفسه لا يُشير إلى إبل أو بَعير أو أية حيوانات أخرى بل هو عهد صريح بذبح أحد الأبناء إذا وصل عددهم إلى عشرة.

ومن الناحية الشكلية فإن الأمر يبدو وكأن عبد المطلب قد احترم قواعد اللعبة وألزم نفسه بها. والأدهى أنه لم يوجد من يعترض ويقوم بتنبيه عبد المطلب إلى أنه قد تلاعب بالأقدار حتى تأتى بما يشتهيه هو وهو إنقاذ ابنه المحبوب.

ومن ينظر إلى واقع عالمنا بعد ما سُمّى بالربيع العربى يتضح له أن هذه العادة لا زالت متأصلة فى أعماق النفس العربية. فالأحزاب المهزومة لا تقبل بنتيجة الانتخابات وتوجِّه الاتهامات بالتزوير والغش وتطالب بإعادتها. وحتى فى مجال الرياضة فإنه لا اللاعبين ولا المدربين ولا

الجماهير تتقبل الهزيمة مع أنها واقع لا نقاش فيه لأنها تُحسب بالأهداف التى دخلت مرمى كل فريق، لكن أى طرف مهزوم يضع اللوم على الحكم أو على حامل الراية أو أية عوامل أخرى لأنه فى أعماقه لا يقبل الواقع كما هو، خاصة إن كان يتناقض مع مصالحه أو قناعاته أو رغباته.

وإذا استرجعنا التاريخ الفكرى للعالم العربى الإسلامى سوف نجد مَعالم صراع مُستمر بين الفكر التقليدى الذى يَلوك الماضى ويسعى لاستنساخ حياة السَلَف فى كل عصر، وبين أنصار التجديد الذين يَسْتوعبون حركة الزمن ويُحاولون القيام بعملية موائَمَة بين الدين وتطور الحياة المادية والاجتماعية والنفسية للإنسان.

ولِى رأيى قد يُغضِب الكثيرين لكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من إبدائه نظرا لشدة اقتناعى به. رأيى أن حراس العقيدة التقليدية وسَدَنة محراب التراث الرسمى لا يختلفون كثيرا فى مَسلكهم الفِكرى عن مُشْرِكى مكة فى عصر بداية الدعوة. فما جاء به سيدنا محمد كان ثورة متكاملة الأركان وعاصفة هبَّت على خيام المنظومة التقليدية العربية البالية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى واقتلعتها من جذورها. لكن ما جاء به الدين الجديد كان أكبر وأكثر خَطرا من أن تتحمَّله العقول التى انغلقت على عقائد متوارثة تستفيد منها ماديا ومعنويا.

و لم يكن مُشْرِكو مكة فى البداية ضد الدين الجديد الذى بَشَّر به محمد من حيث المبدأ، فقد كانوا يؤمنون بوجود إله أعلى ويقولون "بسمك اللهم" بل يقولون أيضا "بسم الله" ولا ننسى أن والد الرسول الذى وُلِد

وتوفى فى الجاهلية كان يُدعى "عبد الله".

وكان المشركون يعتبرون الأصنام ممثلين لهذا الرب الأعلى على الأرض وشُفَعَاء لهم عنده لأن فكرهم لم يكن يرقى إلى مستوى التَجْريد وكانوا بحاجة إلى آلهة ملموسة يرونها ويخاطبونها للعبادة والتماس المنافع.

ولا يَفوتنِى بالتأكيد أن الإسلام كان يُهدِّد مصالحهم المادية ويؤلِّب عليهم العبيد والفقراء ولا يفوتنى أن قلوبهم كانت جاحدة للقيم والمبادىء التى جاء بها محمد. لكن هذا كله كان ينخرط فى إطار الحِفاظ على الماضى وعلى تقاليد الآباء والأجداد.

وسَدَنة التقاليد الحاليين الذين يَسْتأسدون ويَزْأرون ويُزَمْجرون لمواجهة أية محاولة للتجديد والتحديث أو أية نظرة جديدة للدين ولعلاقته بالمجتمع ينطلقون من نفس المنطلقات: فهم بفِطرَتِهم ونشأتهم ضد أية كلمة تُضاف لما قاله السلف أو تُحذف مما تركوه، وهم لا يقبلون سوى تكرار ما قاله أو كتبه أئمة الدين وشيوخه فى العصور الغابرة.

وعندما تستمع إلى خُطَب هؤلاء وإلى أحاديثهم فى وسائل الإعلام فإنك لا تجد فكرة جديدة واحدة توحِّد الله، لدرجة أنه من الممكن أن تتوقع بسهولة كل ما سيتفوَّه به هؤلاء الشيوخ فى موضوع ما بمجرد أن يبدأوا فى التطرق إليه. والسبب أنك استمعت إلى تلك الروايه قبل ذلك مرارا وتكرارا. وكَمْ من المرات استمعت فيها إلى خطب الجمعة وإلى الحوارات الدينية فى التلفزيون انتظارا لتعلم شىء جديد أو الاستفادة من رؤية تختلف عما قرأته وسمعته من قبل، لكن الخطباء والدعاة لم "يُخيّبوا

ظنّي" أبدا، فكان كلامهم كالاسطوانة المشروخة التى لا تتوقف عن تكرار نفس الكلمات وذات الألحان بلا كلل ولا ملل ولا سأم.

وكما أن الرسول قد واجه فى بداية دعوته سادة مكة الذين كانوا يُجسّدون تقاليد الماضى ويستمسكون بعقائد أجدادهم ويخشون كل جديد كما يخشى الإنسان سم العقرب، فإن حراس الماضى وحماة تراث السلف الحاليين والسابقين هم العَقَبة الحقيقية فى سبيل كل تقدّم وهم يتحمّلون بدرجة كبيرة مسئولية تخلفنا وتأخرنا والمِحنة الفكرية والمعنوية والوجدانية التى نعيش فيها الأن.

واسمح لى أيها القارىء الكريم أن أهديك قصة أخرى من التراث وَرَدَت فى العديد من الكتب وانقلها لك من كتاب "تاريخ الرسل والملوك" للإمام الطبرى وتدل هى الأخرى على أن التحايل ولى ذراع الحقيقة رفضا للواقع هو تراث عربى صحراوى قديم، وهى قصة مصرع عمّار بن ياسر فى موقعة صفين وما تلاها من تلاعب بالألفاظ والمعانى الواردة فى حديث للرسول وتفسيره بوجهين مختلفين بل متناقضين تمام التناقض بناء على مصلحة كل من الطرفين المتحاربين وانا أعتبر أن هذه القصة نموذج صارخ للتلاعب بالدين واستغلاله لأغراض دنيوية.

ويُعدّ عَمّار من الشخصيات الهامة فى تاريخ الإسلام وهو ابن أول شهيدين للدعوة كما هو معروف. وعندما قامت الفتنة ووقعت المواجهة بين على بن أبى طالب ومعاوية وقف عمّار فى صف علىّ وكان قد تقدم به العمر لكنه أصرّ على خوض القتال حتى لقى مصرعه. ويقول طه حسين

فى "الفتنة الكبرى" أنه كان شيخا ينيف على التسعين والأرجح أنها مبالغة من المبالغات التى تهيم بها ثقافتنا كما أثبتُ فى كتاب "تحطيم الأصنام".

فموقعة صفين كانت عام 37 بعد الهجرة وقد قتل أهل عمار نحو سبعة أعوام قبل الهجرة وتقول كتب السيرة إن عمره وقتها كان بضعا وعشرين سنة. وبحسبة بسيطة فسنّه عندما قتل فى صفين كان فى حدود سبعين عاما وفقا لتسلسل أحداث حياته. لكن القول بأنه كان يناهز التسعين يُضفى عنصرا دراميا على مصرعه ويجعل الناس يَستبشِعون هلاكه فى الحرب.

ولا أقول إن أنصار علىّ فرحوا بمصرع عمار لكنهم اعتبروه حُجة دامغة على معاوية ودليلا هابطا من السماء على أن الحق معهم وأن عدوهم فى جانب الضلال. فقد أخرجوا حديثا لرسول الله قال فيه مخاطبا عمّار: "وَيْحَك يا ابن سُميّة، تَقتلكَ الفئَة الباغية".

ووَجَدَ صحابة علىّ ضالتهم فى هذا الحديث واعتبروا أن مقتل عمار سيجعل الناس يتجمّعون حولهم ويعادون معاوية ورجاله لأنه ثبت بما لا يدع مجالا لأى شك بأنهم "الفئة الباغية" حيث أنهم هُم الذين قتلوا عمّار.

أما أنصار معاوية فلم يُشكّكوا فى الحديث و لم ينفوا أنهم قتلوا عمار، لكنهم فعلوا ما هو أفضل من هذا وما يتلائم مع آليات التفكير العربية فى الصحراء وهى الالتفاف حول المعنى وليّ ذراع الحقيقة وإلباس الباطل أزهى أثواب الحق. وقد انبرى معاوية بنفسه لتفنيد حُجَّة أنصار علىّ حيث قال بمنتهى هدوء الأعصاب: "أنحنُ قتلناه؟ إنما قتَلَه الذين جاءوا به".

وبرغم أنه قد ثبَتَ أن عمّار لم يُجبَرْ على المشاركة فى القتال بل أنه كان من أشد المحرّضين لعلى بن أبى طالب عليه إلا أن معاوية بعقليته المُلتوية قد وجد مَخرجا وهو أن الرجل كان طاعنا فى السن وربما لم يكن فى كامل قواه العقلية وبالتالى فإن "الفئة الباغية" هى أنصار علىّ بن أبى طالب الذين أخرجوه إلى ساحة القتال وليس الذين قتلوه بأيديهم.

وهذا الفُجر فى التأويل وفى تبديل جوانب الحقيقة ظلّ لصيقا بالعقلية العربية واستخدمه الكثيرون حتى بحُسْن نية لتبرير العديد من الخطايا والجرائم والتستر عليها. وللأمانة فإن الشخصية العربية كانت لديها دائما موهبة خاصة فى تطويع الدين لخدمة مصالحها وتأويل القرآن والسنة لإضفاء الشرعية على رغباتها ونواياها وفى لَىّ عُنُق الحقيقة لمصلحة العقيدة.

ومن منطلق هذه العقلية بَرَع الشيوخ والعلماء طوال التاريخ فى التلاعب بالمعانى بما يتوافق مع مصالحهم ومصالح السادة والحكام. وقد قرأتُ كتابا رائعا باللغة الفرنسية يتناول هذه القضية عنوانه "من أجل فهم القرآن" من تأليف عادل رفعت وبهجت النادى وهما كاتبان مصريان يَكتُبان باسم مُستعار مشترك هو "محمود حسين"، وللأسف أن "محمود حسين" مشهور فى فرنسا أكثر مما معروف بمصر.

ويكشف الكتاب بالأدلة كيف عَمَدَ الشُرّاح والمفسرون إلى الاقتطاع من آيات القرآن وكيف اجتزأوا منها ما يُناسب مصالحهم ومصالح الحاكم وسعَى المؤلفان لإعادة الآيات فى أطارها الصحيح فأظهروا معانٍ تختلف كثيرا عن المعانى التى رَوَّج لها علماء السلاطين.

ولهذه الثقافة تأثير سلبىّ مُدمّر على حضارتنا لأنها من ناحية تَجد تبريرات لكافة الأخطاء والجرائم إذا اقتضت المصلحة ذلك والأخطر أنها تنفى فكرة المحاسبة وهى من أهم أسباب تقدم المجتمعات.

وإلى الآن نَجد الأم تتفنّن فى إيجاد الأعذار عندما يقع ابنها فى أخطاء فاحشة ويقوم بأسوأ الأعمال كما يوجِد الناس أفضل التبريرات عندما يريدون تلوين الواقع باللون الذى يريدونه. ونادرا ما تجد مثل هذا فى الثقافات الأخرى سواء الغربية أو الشرقية حيث يعترف الناس عادة بالخطأ ولا يدافعون عن الباطل. والأهم أنهم يُحاسبون المخطىء ويعاقبون المذنب دون التعلل بحُجَج وتفسيرات واهية تَعكِس الإيمان بمبدأ "العقيدة فوق الحقيقة".

لهذا سُحِقَ المعتزلة

اختفاء فِكر المعتزلة ومَحْوُه تماما من الوجود حتى أصبح الآن فى ذمة التاريخ هو دليل دامغ على أن الفكر التقليدى الاتّباعى تَمكّن من فرض سيطرته الكاملة على العقل العربى برغم وجود جيوب للمقاومة وبعض الانتفاضات المضيئة فى كل العصور كما أوضحنا من قبل. وفى سَعينا للبحث عن سبب كراهية الفكر النَقلىّ المُنغلِق وعدائه للمعتزلة سوف تَتكشّف لنا الكثير من سِمات العقلية السائدة التى أدّت ولا زالت تؤدى إلى تخلف العقل العربى.

ولقد ظل العالم العربى الإسلامى يَموج فى قرونه الأولى بالفكر والفكر المُضاد والآراء المُتصارعة. وأضفَتْ المجادلات العقلية بين الفرق الناشئة جَرعات من النشاط الخلّاق والديناميكية فى جسد الدولة العربية

الإسلامية. وكان الخلفاء والحكام يَسْمَحون بالجَدَل والنقاش والاجتهاد طالما أن ذلك لا يُشكّل خطرا على عروشهم فأتاحوا مناخا صِحّيا من البحث وتطور المعارف في القرون الأولى التى تَلَت الدعوة.

لكن أهمّ ما كَتَبَه ودَوَّنه أئمّة المعتزلة تلاشى والأرجح أنه أحرِق أو أتلف عمدا. ولو بقيت رسائل إخوان الصفا وغيرها من أدبيات الفكر المَعتزلى لربما تغيرت أمور كثيرة فى الثقافة العربية الإسلامية. لكن رموز التحجر أبَوْا ذلك ودمَّروا فكر المعتزلة المادى كما استمروا فى شنّ حرب شعواء على ما تبقى من تراث منقول شفويا وقليل منه مكتوب مثل كتابات القاضى عبد الجبار حتى توارَى فكر المعتزلة وانزوى وأصبح فى طىّ الكتمان كالأسرار العائلية المحظور تداولها لأنها مُشينة بالنسبة لِسُمعة الأسرة ومكانتها فى المجتمع بناء على قرار فوقى من كبرائها.

ولعل أبرز من ترجم فكر المعتزلة وآراءهم وخرج عن كافة الأطر الرسمية المفروضة فى عصره هو العبقرى الجاحِظ الذى استخدم منطق الشك قبل الغزالى وقبل ديكارت وكان يهاجم رجال الحديث ويتّهِمهم بأنهم يُحْجِمون عن تحكيم عقولهم فيما يَجمعون ويَروون من حديث وسنة ولا يعتمدون إلا على مِقياس الثقة فى الشخصيات المأثور عنها فقط.

وكما فعل ابن خلدون من بعده فإن الجاحظ لجأ كثيرا إلى التهَكّم لتفنيد آراء من يؤمنون بالخرافات لأنه من الصعب مجابهتهم بالحجة والمنطق لسبب بسيط وهو أنهم يرفضون العقل والمنطق من الأساس.

وإذا أردتَ أيها القارىء الكريم مثالا على هذا النوع من السخرية الجاحظية اللاذعة فإنه عندما شاع فى عصره أن الحجر الأسود كان فى الأصل أبيض اللون لكنه تحوَّل إلى اللون الأسود بسبب ذنوب البشر وكُفرهم وجاهليتهم، يعنى قبل ظهور الإسلام، علّق الجاحظ قائلا: ولماذا لم يَعُدْ إلى لونه الأبيض إذاً بعدما آمن الناس بالإسلام؟

وهو تعليق تَقطر منه "التَرِيَقَة" على الخرافات لكنه يتناقض مع العقلية التقليدية التى تَسْتَهجن مثل هذا الحديث الذى يَعْمد إلى التشكيك فى المعتقدات المتوارثة.

وقد تزامن تألق الفكر المعتزلى مع العصر الذهبى للدولة العباسية ووصول الحضارة العربية الإسلامية إلى ذروة التقدم العلمى والفنى والثقافى فى عصور هارون الرشيد والمأمون والمعتصم. وكان المنصور قد بدأ فيما يبدو يَهتمّ قبلهم بفكر الاعتزال وكذلك ابنه المهدى، لكن الرشيد كان أول من أفسح المجال للمعتزلة من أجل التأثير فى الناس.

أما المأمون ابن الرشيد فقد تَبَنّى فكر المعتزلة رسميا بل وبطش بكل من كان يخالفهم فى الرأى. وظلت آراء المعتزلة هى العقيدة الرسمية للدولة إلى أن أصدر الخليفة المتوكل مرسوما عام 848 ميلاديا يُعيد به عقيدة من سُمّوا بأهل السنة والجماعة ويُحرِّم الكلام بعقائد المعتزلة. وليس مُستغرَبا أن المتوكل هذا كان أول من يضطهد المسيحيين واليهود ويفرض عليهم قيودا فى الملبس وفى غير ذلك.

و لم يكن من قبيل المصادفة أن الحقبة التى هَيمَن فيها فكر المعتزلة كانت

أغنى وأعظم حقب الحضارة العربية الإسلامية وأكثرها خصوبة وإشعاعا ولا زال اسما هارون الرشيد والمأمون مرادفان لقمة التطور وأوج الرُقىّ والذوق الرفيع ولا زال بيت الحكمة من أبرز رموز عظمة الحضارة العربية الإسلامية.

ولم يكن من قبيل المصادفة أيضا أن تكون حقَب الانحطاط والتردِّى متزامنة مع سيطرة القوى التقليدية المُتزمِّتة. وللأسف أن المأمون لجأ، بدافع من ثقافة الجَبْر التى أفردنا لها فصلا كاملا من قبل، إلى البَطش والتنكيل بكل من كان يُعارض فكر المعتزلة وعَزَلَ من لا يؤمن بآرائهم ومن لا يقول بخلق القرآن. ولو أنه تُركت حرية الرأى والرأى الآخر لربما كان لتاريخ الأمة العربية الإسلامية شأن آخر ولانتصر دعاة العقل والتنوير عن طريق الإقناع والحوار دون أن تُسلط سيوف الحاكم على من يعارضهم.

أقول "ربما" لأن الزمن الذى وَقَعَتْ فيه محنة الاعتزال كانت حقبة يسود فيها منهاج الفرض والإجبار ولم يكن يؤمن فيها أحد بحرية الرأى والفكر والعقيدة.

وفى كل الأحوال فإنه لا شك عندى أن المعتزلة يمثلون أهم تيار فكرى عرفه الإسلام بعد وفاة الرسول الكريم. والطريقة المُمَنهجة التى وُئِد بها هذا الفكر والتى مُحِيَت بها آثاره تدل على أنه كان يشكل خطرا داهما على الفكر التقليدى السائد وكان من الممكن أن تكون حياتنا الآن مختلفة وأن نكون فى مصاف الدول المتقدمة لولا أن القوى التى استماتت من أجل الحفاظ على فكر السلف كما هو بحَذافيره تربَّصت بفكر المعتزلة وانتصرت عليه وأفنَته من الوجود.

لكن تعالوا معى نحاول أن نجد إجابة على هذا السؤال المُحَيِّر: لماذا أجمَعَ غلاة الفكر التقليدى والحكام والطغاة والطبقات السائدة على اعتبار فكر المعتزلة خطرا عليهم وعلى وجودهم؟

إذا بحثنا فى الأصول الخمسة المعروفة التى يقوم عليها فكر الاعتزال فسوف نكتشف حلَّ اللغز ونُدرك أن مبادىء حرية الفكر والاختيار والعقلانية التى قام عليها الفكر المعتزلى تتناقض تناقضا جوهريا مع كل المعتقدات الراسخة التى استخلصها حراس التراث الدينى والفكرى من القرآن والسُّنة.

وسوف أكتفى بالتركيز على ثلاثة من أصول الاعتزال التى استثارت غضب المنظومة العقلية المُتجمِّدة التى أحكمت سيطرتها على الفكر العربى الإسلامى. أول هذه الأصول التى سأناقشها، وهو الأصل الثانى بالنسبة للمعتزلة، هو "العَدْل". ويرى المعتزلة أن الله عادل ولا يمكن أن يكون ظالما. ومع ذلك فإن الظلم موجود على الأرض فى كل العصور. فما تفسير ذلك؟

تفسيره عندهم أن الإنسان هو المسئول عن وجود هذا الظلم وبالتالى فهو المسئول عن أفعاله ويتمتّع بحرية الاختيار لأن الله لا يُمكن بالمنطق أن يَجعله يقوم بأفعال الشرّ ثم يعاقبه بعد ذلك عليها.

وهم يذهبون إلى أبعد من ذلك باستخدام المنطق والقياس حيث يقولون إنه لا يُعْقل كذلك أن يُثيبَ الله الإنسان ويكافئه على أفعال ليس له أى فضل فيها إن كان مُسيَّرا وغير مُخير. يعنى أن هذه الأفعال الحسنة هى من فعل الله تعالى وبإرادته العليا، فلماذا يُدخل من قام بها إلى الجنة وهو ليس له يد فيها؟

ويبدو هذا الكلام منطقيا وقد تتفق الغالبية عليه. لكن الفكر التقليدى لم يتقبل هذا الرأى بهذا الوضوح والصراحة. وإلى الآن فإن الفكر الغالب هو أن الإنسان خاضع لقدَر مكتوب لا يمكن تغييره لأن الله يسيطر على كل شيء ولا يَحدث شيء بغير إرادته وهذا يتناقض مع رأى المعتزلة بأن الإنسان حر الإرادة. وقد حاول الأشاعرة إيجاد مخرج لهذا المأزق والتوفيق بين الجَبر والاختيار لكن التعارض بين رأى المعتزلة فى حرية ومسئولية الإنسان وبين رأى أغلبية أهل السنة والجماعة غير قابل للحلول الوسط وبالتالى فإن التناطح كان حتميا بين الطرفين فى هذا الأصل وغيره.

القضية الثانية التى أفاضَ فيها المعتزلة هى قضية الثواب والعقاب التى أسموها "الوَعْد والوَعيد" وهى الأصل الثالث عندهم. وخلاصة رأيهم أن الله وَعَدَ المؤمنين بالجنة وبنعَم ومزايا كثيرة فى الدنيا والآخرة كما توعّد الكفار والظالمين بنار جهنم وبحياة ملؤها البؤس والشقاء.

ومن هذا المنطلق فإن الله لا يمكن أن يُدخِل رجلا صالحا النار ولا أن يُدخل رجلا كافرا الجنة لأن ذلك يتنافى مع واحدة من أهم صفات الله المعروفة وهى العدل. وبهذا المنطق يُظهر المعتزلة تمسكهم بالعقل والمنطق الذى تكرهه الثقافة العربية التقليدية وتخشاه كالشيطان الرجيم وتحتقره وكأنه أصل من أصول الكفر.

وكان من الطبيعى ألا يروق هذا الرأى للفكر التقليدى الذى يرى أن الله حرّ الإرادة فى المطلق ومن الممكن جدا أن يُدخل كافرا الجنة وأن يَزجّ بمؤمن فى النار لأن الله يفعل ما يشاء، وحتى إن لم يفعل الله ذلك لكنه وارد

وممكن لأنه لا يوجد أى شىء فى الوجود يضع حدودا على إرادة الخالق.

والتناقض هنا بين المعتزلة والفكر التقليدى هو أن هذا الأخير لا يقبل أن يضع قيدا على قدرة الله المطلقة وأن أحكامه لا تخضع لعقل الإنسان بل من الممكن أن تكون صادمة للعقل البشرى ومتناقضة معه لكنه لا بد من الرضوخ لها دون تفكير وهو ما يرفضه المعتزلة.

ومفهوم القدرة الإلهية يلعب دورا رئيسيا فى حياة الناس. والمسلمون المتعصّبون لا يرون فى الله سبحانه وتعالى سوى صفات القدْرَة والاستطاعة والجَبَروت. فى حين أن أنصار الاعتدال يرون فى الله صفات الرحمة والعدل والإنصاف بالإضافة إلى صفات القدرة.

الأصل الرابع للمعتزلة كان هو الآخر محلّ خلاف مع التيار العام وساهم فى أن يجعل فكر الاعتزال خارجا عن فكر ما يُسمى بأهل السنة والجماعة. وهذا الأصل هو المعروف بتسمية "منزلة بين المنزلتين" وهو طبقا للروايات سبب انشقاق المعتزلة عن التيار العام. وهناك رواية قد تكون صحيحة أو بها بعض التحوير والتزويق وهى أنه دار نقاش فى حلقة التابعىّ الحسن البصرى حول مُرتكِب الكبيرة أهو كافر أم مؤمن. والكبائر هى معصية الله دون الشِرك أو الكفر به. ومن أمثلة الكبائر قتل النفس بغير حق والزنا والربا وغير ذلك.

وكان رأى الخوارج فى هذه القضية أن مرتكب الكبيرة كافر بالتأكيد. أما المرجئة فكان رأيهم أنه مؤمن إلى أن يَرِد أمام الله يوم القيامة فيُحدَّد مصيره. وطبقا للرواية المُتَداولة فقد أخذ واصل بن عطاء الكلمة دون

استئذان وقال إنه "لا كافر ولا مؤمن" بل هو "فى منزلة بين المنزلتين" ووصفه بأنه فاسق. ويبدو أن هذا الرأى لم يعجب أحدا وأن النقاش احتدم فترك واصل المجلس و"اعتزل" فكانت كما يقولون بداية تيار المعتزلة.

ومن يفكر فى الأمر يتضح له أن الرأى الذى طرحه ابن عطاء يتناقض مع ركيزة من أهم ركائز الفكر التقليدى الإسلامى والذى أطلقتُ عليها تعبير "الأبيض والأسود" فى كتابى "تحطيم الأصنام" وتحدثنا عنه فى فصل "ثنائية الحرام والحلال".

أما المعتزلة فقد سبقوا زمنهم وارتقى فكرهم وتعدّى الثنائية البدائية التى كانت ملازمة لكل المجتمعات القديمة واختفت مع التطور والرقى فى المجتمعات المتطورة عندما أدرك الإنسان فكرة النِسبية وأن حقائق الحياة عادة ما تحتمل التأويل.

لكن أشهر ما عُرف به المعتزلة هو موقفهم من النص القرآنى حيث يقولون إن القرآن مخلوق أى أن الله خلقه فى الوقت الذى أنزل فيه على سيدنا محمد بالجزيرة العربية. أما التيار الغالب فهو يؤمن بأن القرآن "قديم" بمعنى أزلى وموجود منذ بدء الخليقة وأنه غير محدد بمكان ولا بزمان.

وبالتأكيد أننى لن أخوض هنا فى هذا الجدل الذى طارَت فيه الرقاب وسالَت بسببه الدماء دون ذنب أو جريرة لكن ما أريده هو إيضاح تمسّك المعتزلة بالعقل والمنطق مخالفين بذلك التيار الغالب. والفصل التام بين القرآن كنَصّ وبين الظروف التى نزل فيها معناه أنه لا يمكننا الشرح والتفسير من خلال الأحداث التى وقعت ونزلت آيات لتأويلها والفصل فيها، وبالتالى

فالمطلوب من المؤمن إلغاء عقله تماما وعدم التفكير والكفّ عن أي محاولة لفهم مُسببات النص القرآني ودوافعه، فالتيار التقليدي يُصرّ على أن يضع القرآن خارج الزمان والمكان حتى يغلق باب العقل ويمنع الاجتهاد.

وقبل ظهور الحضارة الإسلامية باثنى عشر قرنا بدأت في اليونان إرهاصات الفكر الذي يضع الإنسان في قلب المنظومة الفكرية ويبذل أصحابه مجهودا جبارا لفهم آليات الحياة ومعايير المعرفة من خلال العقل وخارج إطار تدخل الإرادة الربانية. والفلسفة التي نتجَت عن هذا الأسلوب الجديد في فهم وإدراك حقائق الحياة لا تتعارض بالضرورة مع الدين وقد كان لليونان القديمة دين يؤمنون به وقد حُوكِم سقراط لأنه لم يكن يؤمن بالآلهة الرسمية التي كان يؤمن بها أهل أثينا.

وكان المعتزلة على وفاق مع التراث الهيليني الذي يَبنى معارف الإنسان على العقل والمنطق. ومن الأمثلة الصارخة التي توضِّح ذلك ما قال به المعتزلة فيما يُسمى التلازم بين العِلّة والمَعْلول. فالمعروف للجميع أن النار تحرق الوَرَق إذا لامَسَته. ويقول العلماء التقليديون الذين هَيْمنوا على الساحة إنه في كل مرة يحترق فيها الورق لا بد أن تتدخل الإرادة الإلهية وأنه بغير تدخلها فإن الورق لا يحترق ولا يكون للنار أي مفعول عليها. أما المعتزلة فكان رأيهم أن الله قد أودع في النار القدرة على الحَرق وأودع في الورق خاصية الاحتراق، وبالتالي فإن إرادة الله لا تتدخل في كل مرة يحترق فيها الورق.

ولا أبالغ إذا قلت إن فكر المعتزلة، الذى اطلع عليه بالتأكيد رجال النهضة الأوروبية، قد أثر بدرجة كبيرة على المنهج العقلانى الذى تميز به عصر النهضة. وسوف أعطى دليلا ملموسا على ذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تَوَارد خواطر بين المعتزلة وديكارت.

فمن أشهر أقوال المعتزلة إن "العقل أعْدَلُ الأشياء قِسْمةً بين الناس" أى أن كل إنسان لديه القدرة على التفكير المُستقِل لفهم الحياة.

وفى كتاب "حديث المنهج" لديكارت نجد جملة تَكاد تكون ترجمة حرفية لمقولة المعتزلة وهى أن "الفطرة السليمة هى أعدل الأشياء قسمة بين الناس". وإذا كان الفلاسفة يُفرِّقون اليوم بين الفطرة السليمة والعقل فإن ديكارت يؤكد فى سياق كلامه بعد هذه المقولة بجملتين فقط أنه لا يفرق هنا بينهما. ومعنى ذلك أن ديكارت كتب هذا المعنى حرفيا: "العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس". وبالمناسبة فإن كتاب "حديث المنهج" ظهر عام 1637 أى بعد عدة قرون من كتابات المعتزلة.

نفس السيناريو الذى حدث مع المعتزلة وهو تكتل كل القوى المُحافظة والتراثية من أجل مواجهتهم وخَنقِهم والقضاء على أفكارهم المتطورة حدَث مع النهضة التى أضاءت العقل المصرى والعربى بعد صدمة الاحتكاك مع الحضارة الأوروبية فى بداية القرن التاسع عشر.

ويُمكن تأصيل بداية انطلاق شرارة النهضة بالحملة العسكرية التى قادها بونابارت عام 1798. ولا يغيب عَنّى أن الحملة كانت بداية مرحلة الاستعمار المُمنهج والبحث عن مواد خام وفتح أسواق لنظام رأسمالى

كان فى بداية عُنفوانه. ولا تراودنى أحلام بأن هدف الحملة كان تطوير مصر وإيقاظها من سباتها العميق. لكننى أعتبر أن نتائج هذه الحملة كانت أهم كثيرا من نوايا القائمين عليها.

ولا يسعنى إلا أن أعترف بأن ما حدث هو أن المصريين رأوا أمورا لم يكونوا يَحلمون بها من عِلم ومعارف ونظام سياسى بعد أن اعتادوا أن يعيشوا خاضعين للأتراك والمماليك وكان كل المجهود الذى يقوم به المصريون آنذاك لا يزيد كثيرا عن الأكل والشرب والصلاة والصوم. وأستخدم تعبير "كثيرا" لأنى أعلم أن البعض سيقول إن المصريين وقتها كانت لديهم حِرَف وصناعات صغيرة واقتصاد قابل للنمو لكن من يقرأ أوصاف الجبرتى لأوضاع المصريين يدرك أنها كانت فى غاية الانحطاط والتردى.

وكنتيجة مباشرة للاحتلال الفرنسى تَغَلغلت أفكار الحداثة شيئا فشيئا فبدأت تظهر فكرة الحقوق وألغىَ نظام الرق فى عهد الخديو إسماعيل وتم تأسيس برلمان وحكومة وطالب قاسم أمين بتحرير المرأة والكواكبى بنهاية حكم الاستبداد واقتنع كثيرون غيرهم بضرورة إحداث تغيير جذرى فى كيفية حياة المصريين.

لكنه كما حدث مع فكر المعتزلة كانت هناك القوى التقليدية المحافظة التى تتربّص بكل جديد وتتحيّن الفرصة للقضاء على ما تعتبره بِدَعا وتقاليد أوروبية وتنازلا عن مبادىء الإسلام وبُعدا عن الدين.

ولأن التغيير لا يحدث بين يوم وليلة فقد ظلت القوى المحافظة فى حالة كُمُون وبقيت مُختَبِئة فى الظلام لعشرات السنين إلى أن حانت فرصتها

الكبرى فى يونيو 1967 عندما أصيب الشعب المصرى بفاجعة الهزيمة الصاعقة على يد الجيش الإسرائيلى. كانت هذه الهزيمة ضربة موجعة لمشروع الدولة العلمانية العصرية أو هكذا صورها التيار التقليدى وأقنع بها غالبية الشعب المصرى. وكانت أول مقولة تنتشر كالنار فى الهشيم بعد النكسة هى أننا انهزمنا لأننا نسينا ديننا وابتعدنا عن الإسلام. والنتيجة المنطقية لذلك هى أن العودة إلى الدين هى الكفيلة بأن تعيد لمصر مكانتها وتُبعد عنها شبح هزائم أخرى.

فى عام 1998 كتبتُ كتابا بعنوان "نهاية التفكير" لم يلتفتْ إليه أحد لكنى حاولت فيه أن أنبّه إلى خطورة النزعة المُتأصّلة فى ثقافتنا التقليدية والتى أعتبرها من أخطر منابع التخلف وهى الجنوح إلى تقبل حقائق ثابتة لا تقبل النقاش والجدال حتى وإن جاء العلم والتجربة بعكس هذه الحقائق الموروثة.

وسوف أعطى مثالا صارخا استوقفنى فى كتاب "الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر" للدكتور أحمد زكريا الشلق وهو كتاب يقوم على رفض فكرة أن الحملة الفرنسية كانت وراء نهضة مصر بل يميل المؤلف إلى أنها أدّت إلى نتائج سلبية على الشعب المصرى.

ويقول المؤلف وهو يتحدث عن المجمع العلمى الذى أنشأه بونابارت: "وفى مناسبة أخرى حضر فيها الشيخ المَهدى إحدى جلسات المجمع العلمى حيث كان أحد علمائه (من الفرنسيين) يُلقى بحثا عن أنواع الأسماك فى النيل، فانبرَى له الشيخ المهدى مُقاطعا بأن هذا البحث

لا جدوى منه لأن النبى (ﷺ) قد حَسَم هذا الموضوع عندما قال فيه قولا فَصْلا حين ذكر أن الله قد خلق ثلاثين ألف نوع من الكائنات الحية، منها عشرة آلاف تعيش على اليابس وفى الجو، وعشرين ألفا تعيش فى الماء".

لقد رفض الشيخ مجرّد البحث ومحاولة إحصاء وتصنيف السمك الموجود فى النيل بدعوى وجود حديث غير مؤكد عن الرسول وهو من وجهة نظرى حديث موضوع حيث وصل عدد الكائنات الحية المرصودة حاليا طبقا لآخر الدراسات إلى أكثر من 1،2 مليون كائن حىّ منها نحو مليون فى اليابسة ونحو ربع مليون فى البحار والمحيطات. وحسب آخر وأدق الدراسات العملية فإن العدد الإجمالى للكائنات الحية يصل إلى نحو 8،7 أى أن العدد الأكبر من الكائنات الحية لم يتمّ اكتشافه بعد.

وفى كل الأحوال ألم يفكر هذا الشيخ الجليل قبل أن يُغلق عقله بالضبة والمفتاح ويحيطه بسياج من الأسمنت المسلح أن عدد أنواع الكائنات يتغير بسرعة كبيرة وهناك أنواع تنقرض وأخرى تظهر إلى حيّز الوجود كل أسبوع إن لم يكن كل يوم؟ ألم يدرك أنه كان قد فاتَ ما يناهز 1200 عام على وفاة الرسول فى عصره وأن عدد أنواع السمك قد تغير بالتأكيد خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة، هذا لو افترضنا أن الحديث له أصل من الصحة؟

لكن رأى الشيخ المهدى كان انعكاسا أمينا لثقافة تعمّقت جذورها فى عصور الانغلاق. والأخطر أنه إذا طرحنا هذا الموضوع على المصريين الآن فى القرن الحادى والعشرين فإن الغالبية سوف تؤيد موقف الشيخ المهدى تلقائيا وترفض مجرد التفكير فى أمر بتَّ فيه الرسول حسب تصورهم دون

أن تتحقق من صحة الحديث ومواءمته للعقل والاكتشافات العلمية.

وباختصار فثقافتنا التقليدية تقلق كثيرا بالفطرة ممن يستخدم عقله ورد الفعل التلقائى لأى شخص تُحَدِّثه بالحجة والمنطق، وخاصة فيما يتعلق بالأمور الدينية، عادة ما يكون سلبيا ومرتابا فى حسن نوايا من يحدثه. وهناك تراث يقوم على التَحَرّج من استخدام العقل والتَشكك فى قدراته على إدراك الحقيقة. وعندما ظهرت محنة خلق القرآن ضُرب الإمام أحمد بن حنبل ضربا مبرحا ليقول بخلق القرآن فرفض ذلك على أساس أن هذه القضية غير واردة لا فى القرآن ولا فى السنة واكتفى بقوله: "لا هو مخلوق ولا هو غير ذلك".

وكان الإمام شجاعا إلى أقصى حدود الشجاعة الأدبية والمعنوية، لكنه كان يَعكس إحدى ثوابت الثقافة العربية التقليدية وهى رفض استخدام العقل من حيث المبدأ.

وبعد عصر المتوكل كانت للمعتزلة مرحلة تأثير ثانية وكان لهم بعض النفوذ فى الدولة البويهية، لكن الخليفة العباسى القادر بالله أجهز عليهم تماما بالاتفاق طبعا مع العلماء والسلاطين فأصدر عدة رسائل آخرها عام 1029 منع فيها الكلام بخلق القرآن وبكل عقائد المعتزلة، ودخل العقل العربى فى مرحلة من الظلام الدامس إلى أن جاءت النهضة فى منتصف القرن التاسع عشر والتى نجح نواطير الماضى كما قلنا فى إجهاضها.

ولأن المعتزلة هم أكثر الفِرَق استخداما للعقل والمنطق فإنه من الممكن

أن نستخلص أن العداء و الكراهية التى أحاطت بهم من قِبَل التيار التقليدى تدل على أن الاتجاه الغالب فى ثقافتنا يتوجَّس خيفة من العقل ويَمقت حرية التفكير ويرتاب من الموضوعية ويُؤْثر على كل ذلك الأوهام والغيبيات ومنهج إلغاء العقل وروح القطيع وفِطرة الببغاء.

متى نقتل الأب؟

هناك قصص عديدة ومتواترة تُروَى عن الصحابة وعن الخلفاء الراشدين تجعل منهم ملائكة وقدِّيسين يُحَلقون فى أعالى السماوات وليسوا بَشراً لهم احتياجات وأَحاسيس ورغبات وتناقضات داخلية مثل أى إنسان طبيعى فى كل زمان ومكان. وفى رأيى المتواضع أن هذا يتناقض مع صحيح الدين حيث أن الرسول الكريم نفسه كان يُخطِىء كما هو معروف وهناك آيات قرآنية تؤاخذه على أخطائه لعل أشهرها ما جاء بسورة عَبَس: "عَبَسَ وتَولّى أن جاءَه الأعمَى".

وعلى الرغم من تحذيرات الرسول فقد تنامت بعد وفاته نزعة "التنزيه" وهى فى حاجة إلى تحليلٍ لمُسبِّباتها ودوافعها النفسية والاجتماعية نظرا لكونها تُمثل عقبة كؤودا فى سبيل التقدم والنمو. فبعد انتقال الرسول إلى

الرفيق الأعلى شعر المسلمون بهيمنة الغرائز وطبائع الطمَع والتكالب على الحياة والجَشَع المادى وأدركوا أنهم غير قادرين على التَرَفّع والتَسامى عن الأخطاء كما يأمرهم الدين الجديد، فبدأت تتبلور كَرَد فعل لذلك رغبة جماعية فى خلق نماذج إسطورية لا تُخطىء ولا تَحيد قَيدَ أنملة عن الطريق القَوِيم، وكأن هذه النماذج المثالية التى لم يكن لها وجود فى الواقع ستكون بالنسبة لمن يسمع عنها فرملة لحب الدنيا والإقبال على مباهج الحياة وسوف تجعل الناس على الدوام يسعون للاقتداء بمسالك هؤلاء الأوّلين.

كانت النيّة إذاً حَسَنة لأن الذين دبّجوا الأقاصيص حول الكمال الروحى والأخلاقى للأقدمين كانوا يريدون إضافة نوع من التوازن إلى ذلك التناقض الذى تحدثتُ عنه وهو التناقض بين تعاليم الدين كما فهموها وواقع الحياة كما عايشوها.

لكن ما حدث هو أن الإغراق فى هذه القصص الخَيَالية والمُزايَدة فى مجال الخُلق القويم والكمال الأخلاقى والترفع عن الخطايا صَنَعَ أجيالا متوالية من المنافقين الذين يقولون أجمل الكلمات ويُدبّجون أحلى القصص لكنهم يَنقادون لاحتياجات الدنيا ولغرائزهم الحسّية ويبحثون عن متاع الماديات ويسعون للاستفادة من مواقعهم المتميزة، كل هذا مع الإصرار على إنكار تجاوزاتهم والظهور فى أثواب الطهر والعفاف والتُقى والوَرَع.

ولا بد أنك لاحظت أيها القارىء الكريم أننى لا أستخدم كلمة "تنزيه" بالمعنى الذى استُخدِم فى إطار المنازعات بين الفِرَق والمذاهب

حول التنزيه والتعطيل والتشبيه والتثبيت وكلها تخصّ صفات الله، لكنى أستخدم الكلمة للتعبير عن تنزيه المخلوقات عن الأخطاء وتَخْلية نفوسهم من العيوب.

وكم من القصص التى تُروَى عن الخلفاء الراشدين تُوحِى بأنهم كانوا يَجدون قوتهم اليومى بالكادْ وأنهم كانوا يَحرمون أنفسهم من كل شىء ويَعيشون كأفقر الفقراء فى الأمة الإسلامية التى بدأت تتسع لتشمل مساحات شاسعة وشعوبا جديدة وبدأت تَتَدفق عليها النِعَم والخيرات والكنوز من الأمصار المفتوحة.

يُحكى مثلا عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه لم يخرج من منزله فى يوم من الأيام فجاءه رجل يطلب منه الخروج لحاجة له فاتضح أن الخليفة لا يمتلك سوى رداء واحدا وأنه قد قام بغسله ولم يجفّ بعد فلا يستطيع مغادرة داره. وفى رأيى أن هذه الرواية التى يَدمع الكثيرون تأثرا عند سماعها ويُمَصْمِصون شفاهم إعجابا بزُهد عمر بن الخطاب ورفضه لماديات الحياة إنما هى فى حقيقتها مُسيئة لسيدنا عمر الذى كان بلا شك رجلا عظيما ولعب دورا أساسيا فى إقامة دعائم الدولة العربية الإسلامية وليس بحاجة إلى مزايدات ساذجة لتحسين صورته، ويكفيه ما صنعه ليكون من عظماء التاريخ.

وسوف أشرح فيما بعد لماذا لم يكن الخلفاء الراشدون يعيشون عيشة الفقراء وأنه ليس مطلوبا ممن يضطلع بالمسئولية الأعلى فى الأمة أن يعيش مُعْدما ومحروما. لكن هذه الأساطير التى نَسَجها علماء السلاطين على مرّ الأجيال تهدف إلى جعل عامة أبناء الشعب يَميلون إلى تقبل عيشتهم

الصعبة وحالة الضنك التى يُعانون منها طالما أن أعظم الرجال فى تاريخ الإسلام كانوا فقراء مثلهم.

وكان الخليفة الأموى عمر بن العزيز الملقب بخامس الخلفاء الراشدين محورا للعديد من تلك الأقاصيص، فيؤثر عنه مثلا أنه وَجَد ابنته تبكى فى أَحد الأيام لأن كل الأطفال لديهم ثياب جديدة بمناسبة العيد إلا هى، فذهب إلى خازن بيت المال واستأذنه فى أن يتقاضى راتبه عن الشهر التالى حتى يشترى لها فستانا فرفض الخازن قائلا له: أتضْمَن لى أن تعيش وتؤدى عملك الذى تريد أن تتقاضى راتبك عليه قبل أدائه؟

وهذه القصة أيضا لمن يفكر بشىء من الموضوعية مُسيئة لعمر بن عبد العزيز إذ كيف يُحَقق العدل والمساوة بين الناس وهو يَظلم طفلته الصغيرة ويَحرمها من أن تتساوى مع قريناتها وترتدى ثوبا جديدا بمناسبة العيد؟ كيف يَحفظ للناس حقوقهم وهو عاجز عن أن يوفر لأسرته أبسط الحقوق؟

وأرجو ألا يزايد أحد مؤكدا أن الخليفة المسكين لم يكن يمتلك ثمن ثوب واحد لابنته. فالثابت أن الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز عاشوا حياة طبيعية ولا يوجد دليل واحد أنهم عاشوا فى ضنك وعَوَز للأسباب التى سأشرحها.

تفيد المعلومات التى اتفق عليها كتّاب السيرة أن كل من شارَك فى غزوة بدر كان يحصل مدى حياته على مبلغ ثابت قدره 5 آلاف درهم سنويا وهى تكفى تماما لحياة كريمة ولا يُمكن أن يسقط من يتقاضى هذا

المبلغ فى حالة الضنك التى يريدون أن يوهمونا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يعيشون فيها لأنهم جميعا كانوا من المشاركين فى بدر.

حتى عثمان بن عفان الذى لم يُشارِك فعليا فى تلك الغزوة وبقى مع زوجته زينب بنت الرسول فى المدينة عَدَّه النبى مشاركا وكان بالتالى يتقاضى نفس المبلغ الذى كان يحصل عليه كل المشاركين فى بدر. ولم أقرأ فى أى مكان أن أحد الخلفاء الراشدين رفض هذه المبلغ أو أمر بردِّه إلى بيت المال بعد أن تولى الخلافة.

ومعروف أن سيدنا أبو بكر الذى كان تاجرا ثريا قبل أن يُصبح أول خليفة بعد وفاة الرسول ظل مستمرا فى العمل بالتجارة لفترة قصيرة بعد أن تولى أمر الأمَّة ثم توقف عن ذلك فى اللحظة التى شعر فيها أن هناك ما نسميه الآن "تَعارُض مصالح" بين كَوْنه خليفة وعمله بالتجارة.

ومعروف أن الخليفة عثمان كان من أغنى تجار مكة قبل الدعوة وأنفق الكثير من أجلها لكنه مع ذلك لم يَحرم نفسه من شيء عندما صار خليفة للمسلمين.

والمشكلة هى فيما حدث بعد حقبة الخلفاء الراشدين وخاصة منذ معاوية بن أبى سفيان. وكان هذا الأخير أول من جلس فى مكان أقرب إلى العرش ليرتفع فوق الجالسين حوله فى حين أن الخلفاء الراشدين كانوا يجلسون على الأرض وسط الرعية. وقد عُرف عن الأمويين، باستثناء عمر بن عبد العزيز، أنهم أفرَطوا فى مظاهر الأبَّهة ورَغَد العيش وأصبحوا يُنفقون من بيت المال وكأنه جزء من ثرواتهم الخاصة، وعُرف عن العباسيين كذلك

أنهم كانوا يعيشون فى تَرَف يصل إلى حد الوقاحة وكانت تُجْلب لهم الثلوج من أعالى الجبال فى الصيف حتى لا يشعروا بحرارة الشمس فى الوقت الذى كان فيه رعاياهم يُعانون من القيظ والغبار والفقر والجوع.

وفى التاريخ الحديث قرأنا وسمعنا عن رؤساء جَمَعوا ثروات فلكية حتى قيل إن ثروة الرئيس المصرى المخلوع حسنى مبارك كانت تقدّر بعشرات المليارات وهى طبعا من أموال الشعب. ولو افترضنا أن فى تلك الأرقام مبالغة كبيرة وتضخيم يَعكس عيوب ثقافتنا المتوارثة، فإنه من الثابت أن الملوك والرؤساء فى عالمنا العربى كانوا ولا زالوا يَغترِفون من أموال الشعوب ويعيشون فى بروج عاجية أو بمعنى أدق بروج من الذهب والماس.

وكان رد فعل حراس العقيدة ساذجا إلى أقصى درجة حين أرادوا أن يُعطوا أمثلة مضادة لذلك فأفرطوا فى قصص الزّهد والتقشف عن الخلفاء الراشدين والصحابة بصفة عامة وتصوروا أنهم بذلك يَعْدِلون الميزان حتى لا تنتاب الناس حالة من اليأس عندما يرون سرقة المال العام من قبل حكامهم أمام أعينهم، لأن باستطاعتهم أن يحلموا بأيام غابرة كان الخليفة فيها أفقر من رعاياه.

وتنزيه الصحابة والخلفاء والسلف الصالح لم يقتصر على روايات التَرَفع والزهد فى الماديات بل تعدّاها ليشمل كافة أوجه الحياة. وبالتالى فإن كل من حاول أن يقدّم صورة موضوعية للخلافات التى نشبت بين الصحابة وبعضهم قوبل باستِهْجان ونقد لاذع حيث أن الأدبيات الرسمية تؤكد

أن الصحابة كانوا في حالة من المَحَبّة المتبادلة والتجانس والتآلف التام ولم تكن بينهم أية خلافات تُذكر، وكل من يقول عكس ذلك يكون في نظر حراس التقاليد إما مُستشرقا حاقدا على الإسلام أو عميلا يريد تقويض عظمة الحضارة العربية الإسلامية.

وسمعتُ أحد "الدعاة" يتحدث يوما وصوته يرتجف من التأثر عن علاقة المحبة والمودّة التي كانت تجمع بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأن هذا الأخير أجهش في البكاء عندما علم بموت الإمام عليّ. وانبرى هذا الداعية قائلا إن الموضوع كله خلاف "بسيط" حيث كان يريد معاوية معاقبة قتلة عثمان وهو أيضا ما كان يريده عليّ، لكنه لم يكن قادرا على ذلك.

كيف نُصدّق هذا الهُراء؟ كيف نصدق هذا الهراء ونلغي عقولنا ونتناسى أن الخلاف بينهما قد احتدم إلى الذروة وإلى رسائل في منتهى القسوة تتضمن اتهامات خطيرة متبادلة وأدى إلى مناخ من البغضاء والفرقة، بل إنه أدى إلى قوع عشرات الآلاف من القتلى لدى الجانبين في معركة صفين وغيرها؟

واقع الأمر الذي لا يستطيع أحد أن ينكره هو أن الصحابة اختلفوا كثيرا ووقعوا كثيرا في المحظورات حتى أن الرسول الكريم نفسه كثيرا ما لامَهُم وآخذهم بل وصل الأمر إلى إقامة حدّ الجلد على أحد الصحابة المقربين منه وهو حسان بن ثابت في حادثة الإفك المعروفة. ولا ننسى أن الخليفة عمر بن الخطاب أقام هو الآخر الحد على بعض الصحابة، والأهمّ أنه أصْدَر أمرا بمنع كل الصحابة من مغادرة المدينة ولا شك أنه كانت لديه أسباب خطيرة جعلته يتخذ هذا القرار الذي أغضبهم كثيرا.

لكن لنذهب إلى أبعد من ذلك.. ولنَطرَح السؤال البديهى الذى يرفض حرّاس العقيدة الإجابة عليه أو يجدون له المخارج والتعليلات: بماذا نفسّر قيام المعارك الطاحنة التى راحت ضحيتها أعداد هائلة من القتلى كلهم من المسلمين بدءا بموقعة الجمل التى كان أهم الصحابة الأحياء وقتها يترأسون الجانبين المتحاربين فيها، ثم موقعة صفين بين علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان أحد كتاب الوحى وشقيق أم المؤمنين أم حبيبة؟

بماذا نُفسّر وقعة الحِرَّة الشهيرة بالمدينة التى قُتل فيها 80 من صحابة رسول الله؟

بماذا نفسر قتل وصَلب عبد الله بن الزبير الذى كانت تُكنَى عائشة أم المؤمنين باسمه؟ بماذا نبرِّر ذبح آل البيت الأطهار الواحد وراء الآخر جيلا بعد جيل؟

فمنذ الفتنة الكبرى ومقتل عثمان بن عفان على يد بعض من الصحابة الأجلاء مثل محمد بن أبى بكر سالت بحار من الدماء بين المسلمين صراعا على السلطة لكنها كانت دائما تُغلّف بذرائع خلافات مذهبية لا يُقرّها الإسلام. فحُبّ السلطة وشهوة الملك والرغبة فى الاستمتاع بالماديات هى غرائز بشرية لم ينجُ منها إنسان واحد منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة. وانصبّت جهود الفلاسفة طوال التاريخ لفهم ودراسة هذه الغرائز ومحاولة كبح جماح الحكام والقادرين ليعمّ العدل فى الدنيا. لكن العدل لن يعمّ أبدا بتنزيه بعض البشر عن الأخطاء ولن يعمّ باختلاق ماض لم يكن له وجود فى أرض الواقع.

خُرافة أخرى يُراد بها تزيين الصورة وتجميلها بطريقة ساذجة تتناقض مع الواقع وتنبع من نفس المقصد وهو تنزيه الصحابة الذى سُرعان ما ينسحب فى أذهان العامة على تنزيه الحكام والكبَراء والعلماء والشيوخ وغير ذلك من قادة المجتمع فى كل العصور. فكتب التاريخ الرسمى للدولة الإسلامية تؤكد لنا أن الخلفاء الراشدين كانوا زاهدين تماما فى السلطة وأنها فرِضَت عليهم فرضا وأن الخلفاء الأربعة لم يقبلوا بتولى زمام الحكم إلا حفاظًا على الأمة الناشئة وخوفا من ضياع الدين الجديد الذى كان يتربَّص به المُرتدّون والحاقدون لكنهم كانوا كارهين لتولى زمام الأمة والاضطلاع بالسلطة.

ولا شك عندى أن إنقاذ الأمة الناشئة من الفتَن ونَزَعات الردّة كان فى قلب اهتمامات الخلفاء الراشدين. ولا شك عندى أن صلاح الدين كان هدفهم من وراء تولى زمام الحكم. لكنه لا شك عندى أيضا أنه كانت لديهم دوافع أخرى إنسانية موجودة بالفطرة فى داخل كل إنسان حىّ مهما بلغ من رُقى الأخلاق والترفع عن الماديات لأنه ثبت بالتجربة أنه يكاد لا يوجد إنسان طبيعى يقترب من السلطة إلا ويَنجذب لسِحرها ويرضَخ لإغراءاتها ويشتهى التربع عليها.

والمشكلة هى أن الحُجَج التى يسوقها أنصار التاريخ الرسمى غير مُقنعة ولا تفى بالغرض الذى يدافعون عنه. فهم يستشهدون بما تواتر عن الخلفاء الراشدين أنفسهم عن علاقاتهم بالحكم ويستخرجون بعض الجمل تفيض كلها بالزهد فى السلطة ومؤداها أنه لو كان الأمر بيدهم لما قبلوا منصب الخليفة.

ولأن الكثير مما نُقل عن أبطال هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الإسلام غير موثق وبالتالى غير مؤكد حيث لم تبدأ عملية التدوين المُمَنهج إلا بعد نحو قرنين من وفاة الرسول فإن الشك فى هذه المقولات مشروع بل وضرورى لكل من يحاول أن يكون جادا فى فهم ما حدث تطبيقا لمعايير علم التاريخ.

ومع ذلك فإنه لو قمنا بعملية قياس مشروعة على مواقف مماثلة تم فيها التدوين بل تم فيها التسجيل عن طريق التلفزيون والكاميرات فى العصر الحديث يتضح لنا أن كل من تولوا السلطة فى العالم العربى بلا استثناء قالوا كلاما يكاد يكون مطابقا لما هو مُسجَّل فى أدبيات التاريخ العربى الإسلامى عن الخلفاء الأوائل وأعربوا عن زهدهم فى السلطة وأنها قدر مكتوب عليهم.

وأنا لا أقارن بين هؤلاء الذين فَرَضوا على شعوبهم حكما دكتاتوريا وبين الخلفاء الراشدين الذين حكموا بالعدل، أو بما يرونه عدلا، لكنى أتحدث عن العلاقة بين الحاكم والسُلطة. وقد ثبت بالتجربة أن من يَحكم لا بد أن يكون مدفوعا برغبة داخلية فى الحكم والإقبال عليه، ولو كان زاهدا فيه لما تولاه لأن حجة أنه "يُضحّى" بنفسه من أجل الآخرين هى حجة مناقضة للمنطق حيث أن هناك دائما آخرين قادرون على تولى السلطة ولا يوجد حاكم قدَرَى لا تسير الحياة بدونه.

وإذا أخذنا أبو بكر مثلا فلو كان غير راغب فى السلطة فقد كان هناك عمر وعثمان وعلىّ جديرين بتولى زمام الأمور بعد وفاة الرسول،

وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة يمتلك صفات الزعامة والقيادة وكان يَحظى بثقة المسلمين وحُبّهم، وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة قادرا على مواجهة حركة الارتداد وإعادة فرض أركان الإسلام على كافة القبائل بالجزيرة العربية.

وأكاد أسمع من يقول إنهم لم يكونوا قد نَضَجوا بعد لتولى زمام الأمور. لكن أبا بكر لم يحكم سوى عامين ونصف فهل يريد أحد أن يقنعنى بأن عمر بن الخطاب قد نضج وصار جاهزا للحكم فى هذه المدّة القصيرة؟

ومن يقرأ كتب التاريخ وعلى رأسها تاريخ الطبرى يُفاجأ بوجود خلافات حادة على السلطة وصراعات على الخلافة. ومن يدّعى أن دوافع تلك الخلافات والصراعات كانت الصالح العام وخير الأمة وأنها كانت خالية من أية دوافع شخصية فإنه يناقض نفسه ويضحك عليها.

فتعالوا نرى مثلا ما كَتَبَه الطبرى عن رد فعل علىّ بن أبى طالب على اقتراح عبد الرحمن بن عوف أن ينحّى نفسه عن الترشّح للخلافة عَلَى أن يتولى هو اختيار الخليفة بعد أن أوصى عمر وهو على فراش الموت بتشكيل لجنة من ستة من الصحابة لاختيار الخليفة فيما بينهم وهى القصة التى أشرتُ إليها فى فصل "للخلف درّ".

فقد تشكك علىّ فى نوايا بن عوف على الفور وقال له: "أَعْطِنى مَوْثِقا لَتؤْثِرنّ الحق ولا تتّبع الهوى ولا تخصّ ذى رحم". ورَجُلٌ فى حجم ورَجاحة عقل علىّ بن أبى طالب لا يقول مثل هذا الكلام الخطير والذى

ينم عن عدم الثقة في بن عوف لولا أنه يعرف أن هذا الأخير قد يَنساق وراء الأهواء أو المصالح.

وعندما لفظ عمر أنفاسه الأخيرة وحانَ وقت الصلاة عليه تنافس عثمان وعليّ بن أبي طالب على من يترأسها ويَؤمُّها. ومعروف أنه عندما اختار الرسول أبا بكر ليؤمّ الصلاة خلال مرضه الأخير كان ذلك من المعايير التي أخِذَت في الاعتبار لتفضيل أبي بكر للخلافة. وبناء على ذلك فقد كان كل من عثمان وعليّ يريد أن يضع نفسه في موقع مُتَقدم ويكسب نقطة على حساب الآخر في الصراع على عملية اختيار الخليفة.

وقد علّق عبد الرحمن بن عوف على ذلك كما جاء حرفيا في الطبري قائلا: "كلاكما يُحبُ الإمْرَة". يعني بصريح العبارة كلاكما يريد أن يكون خليفة وزعيما للأمة ويطمع في السلطة. ثم قال لهما ما معناه بلغتنا الحالية: "لا انت ولا هو".. فقد أمر عُمَر قبل وفاته أن يؤم الصلاة صهيب إلى أن يتمّ الاتفاق على رأي بشأن الخليفة.

وهذا دليل على أن عمر كان يُدرك تماما أن من يؤم الصلاة يكسب "بنط" على غيره في معركة الخلافة وقد اختار شخصا ليس من بين الستة الذين يُختار منهم الخليفة القادم حتى لا يلعب أحدهم هذه اللعبة، فاستبق بذلك محاولة عثمان وعليّ في التسابق على إمامة الصلاة.

إذا فالزهد والترفع والتسامي الذي تَزخَر به كتب وتعليقات التاريخ الرسمي حول مواقف الصحابة من السلطة كلها أمور بعيدة عن الحقيقة والغرض منها تكوين صورة مثالية لتكون نموذجا يحتذى إلى يوم الدين.

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الهدف المنشود من التاريخ الرسمي

للإسلام هدف حميد. لكن نتائجة كانت وخيمة وكارثية بل هى سبب من أهم أسباب تخلفنا الحالى. فوجود عالَم نموذجى خيالى ومثالى فى الماضى يَصنعه المؤرخون والرواة والتراثيون صُنعا يجعل الناس تشعر بالعجز عن ملاحقته وتقليده وبالتالى فهم يلجأون إلى الكذب والنفاق والاحتيال والالتفاف للإيهام بأنهم يُحاكون سيرة السلف الصالح.

ولا توجد شعوب تقدَّمَت لم تقمْ بغربلة موروثها وزَعزَعة معتقداتها وتحطيم أصنام أقامها الأقدمون. أما نحن فقد صنعنا الأساطير وأرغمنا كافة المؤمنين على أن يسيروا خلفها جيلا بعد جيل وأن يضعوا الحاكم فى منزلة فوق منزلة البشر والمساءلة، مما جعلنا نسقط فى هوة التخلف والانحطاط لأننا نرفض واحدة من أهم سنن الحياة وهى سنة التغيير والتبديل وقانونا من أهم قوانين تنظيم المجتمعات وهو محاسبة الحكام والمسئولين.

وبتجربتى الطويلة فى متابعة الحياة السياسية ورجال السياسة فى مصر والعالم اتضح لى أن المسئولين العرب يشتركون فى خاصية وهى ترديد نفورهم من السلطة وانتظارهم لليوم الذى يتركون فيه المنصب. لكن واقع الأمر الذى لا تعرفه إلا من خلال الاقتراب من منابع ومصادر السلطة هو عكس ذلك تماما، فهم على استعداد لأية تضحية من أجل البقاء فى أماكنهم. وعندما كان يخلو منصب سواء فى الوزارة أو فى المؤسسات الصحفية كنت أتحاور مع بعض الذين تردّد أسماؤهم كمرشحين للمنصب وكانوا فى كل مرة ودون استثناء يقولون لى إنهم لا يريدون المنصب ويتمنون ألا يقع الاختيار النهائى عليهم. وكنت أفاجأ بأن من

قال لى هذا الكلام يسعى ويتحرك ويجتهد بيديه وأسنانه ولا يكف عن الاتصال بمن بيدهم الأمر ليكون هو الفائز بالمنصب.

وهذه العادة غير موجودة بهذه الصورة الكاريكاتيرية فى رجال السياسة الغربيين الذين عرفتُ بعضهم عن قرب فى باريس. لا شك أنهم يُراوغون ويُناورون ويُدارون الحقائق. لكنى لم أرَ أحدهم يَعزِف على نغمة الزهد فى المنصب لأن الناخب الفرنسى واع تماما ولا يَقبل أن ينتخب شخصا زاهدا فى السلطة لأنه ببساطة لن يكون صالحا، فالسياسة فى حاجة إلى طموح إيجابى ورغبة داخلية تُحرك الإنسان وتجعله يَتحرَّق شوقا للسلطة وعندئذ يكون قادرا على الإنجاز والعطاء.

لكنه لو كان المُحرّك الوحيد للمسئول هو طموحه الشخصى لكان سياسيا فاشلا ولكان إسهامه فى الحياة العامة سلبيا. فالنجاح فى عالم السياسة هو التلاقح بين الطموح الشخصى والرغبة فى الخدمة العامة وأتصور أن هذه الثنائية كانت من أهم أسرار نجاح الخلفاء الراشدين مهما كَرِهَ أنصار التفسير الرسمى للتاريخ الإسلامى هذا الكلام.

وعندما ظهرت السينما فى القرن العشرين أجمع حراس التقاليد على رفض تَشخيص الصحابة وآل البيت فى أى عمل روائى وظلت تلك القاعدة غير المكتوبة سارية على كافة الأفلام والمسلسلات الدينية والتاريخية. وفى رمضان 2012 بثّ التلفزيون مسلسلا بعنوان "عمر" كسر للمرة الأولى الحظر المفروض على تجسيد الصحابة وآل البيت وإن لم يتجاسر مخرجه على تجسيد زوجات الرسول. لكن المُشاهد رأى للمرة

الأولى مُمَثلين يتقمّصون شخصيات أبى بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب.

وكانت هذه الشخصيات تُقدَّم قبل ذلك فى الأعمال الفنية بأسلوب ساذج حيث يظهر سيفُ علىّ بن أبى طالب، المُسَمّى "ذو الفقار"، يُحارب ويُبارز ويُناطح وحده فى الهواء لكنك لا ترى حتى اليد التى تُمسك به، ثم تسمع صوتا وكأنه قادم من أعماق بئر وتفهم أن هذا الصوت هو صوت عمر بن الخطاب أو غيره من الصحابة.

وانبرى الكثير من علماء الدين التقليديين لمهاجمة المسلسل وقد تابعتُ فى إحدى القنوات أحد هؤلاء يُفتى أن تجسيد شخصية عمر هو "تَصغير" لثانى الخلفاء الراشدين وتقليل من شأنه وأن الممثل الذى قام بهذا الدور سوف يراه الناس بعد ذلك فى أدوار أخرى وهذا مَساس بشخصية عظيمة مثل عمر.

وقضيتى ليست تجسيد الصحابة أو الأنبياء لكننى استخلص من هذه القاعدة خاصية من أهم خواص الشخصية العربية الإسلامية التى لا زالت تلعب إلى يومنا هذا دورا كبيرا فى حالة التخلف التى نعانى منها وأقصد بها عُقدة التنزيه والتقديس.

وأستطيع أن ألـخّص أزمة ثقافتنا فى هذه النقطة بأننا فشلنا حتى الآن فى أمر نَجَحَت فيه المجتمعات الغربية مما أتاح لها الانطلاق فى طريق التقدم. فقد فشلنا فى أن "نقتل الأب" حسب التعبير الذى استّنه مؤسسِ علم النفس سيجموند فرويد. وقتلُ الأب ليس معناه بطبيعة الحال قتلَ

مادى بل معناه قتل معنوى أى التخلص من سلطة الأب وسطوته وربقته وتعاليمه التى فرضها على أبنائه فى مرحلة طفولتهم. كما أن الأب ليس معناه رب الأسرة فقط بل هو يرمز إلى كل سلطة فوقية أو مرجعية علوية تظل جاثمة على صدر الإنسان طوال حياته.

وأنا أعتبر أن اليوم الذى تمّ فيه إعدام لويس السادس عشر إبان الثورة الفرنسية بالمقصلة كان برغم قسوته من أهم اللحظات الفارقة فى تاريخ البشرية لأن المَلك آنذاك كان تجسيدا للسلطة بكل معانيها، وكان الشعب الفرنسى مثل كافة شعوب أوروبا مؤمنا بأن الملك يَحكم بالحق الإلهى أى أن الله هو الذى اختاره ليضطلع بمسئولياته وأن طاعته من طاعة الله.

وقد دار بين زعماء الثورة جدال طويل حفظته كتب التاريخ الفرنسية بين مُؤيدى الإعدام ورافضيه، وكان روبسبيير هو الذى رجّحَ كفة الإعدام وكان منطقه أنه لو عاش الملك لظل رمزا حيا للسلطة السماوية والأبوية وأن موته على المقصلة سيضع حدا لأسطورة الحاكم الإلهى فى ضمير الشعب الفرنسى ووجدانه وسوف يسمح للمواطن الفرنسى فى المستقبل بأن يتحرر من نير الأب الأعلى الذى تفرضه السماء.

والسلطة العليا لا تعنى السلطة السياسية وحدها بل تعنى كل أنواع السلطة والتسلط على إرادة الإنسان الحرّة، فمن الممكن أن تكون سلطة معنوية كسلطة الأب أو المعلم أو الأستاذ فى المدرسة أو الجامعة والشيخ فى الجامع والعمدة فى القرية كما يمكن أن تكون سلطة إدارية من الرئيس المباشر أو غير المباشر أو سلطة روحانية من شخص يملك قدرة التأثير على

الناس وبَسْط نفوذه عليهم من خلال أساليب مدروسة تحرك الأحاسيس الكامنة أو مشاعر اللاوعى لديهم وتجعلهم منقادين لهذا الشخص.

وأتمنى ألا يفهم القارىء الكريم أننى أطالب بإعدام رؤسائنا أو قتل آبائنا وأساتذتنا لأن ذلك أبعد ما يكون عما يدور فى ذهنى. ما أعنيه هو ضرورة إحداث قطيعة حاسمة مع مرحلة الانقياد الأعمى والخضوع والخشوع والاستسلام لأفكار وآراء أشخاص يُهَيْمنون على عقول الناس سواء هيمنة فردية أو جماعية، والقتل هنا بالمعنى المجازى أى القطيعة مع العبودية التى تفرضها ثقافتنا الموروثة إزاء أولى الأمر.

لكننا لا زلنا فى مرحلة المراهقة الحضارية فى هذا العصر بعد أن كنّا فى طليعة حضارات العالم فى عصر سابق. لا زلنا نُعَدّ من عبدة للأصنام لكن الأصنام لم تعد أصنام الجاهلية مثل هُبَل واللّات والعزة ولكنها فى مرحلة الرِدّة الحضارية التى نعيشها أصبحت الرئيس والأستاذ والداعية وشيخ الجامع والأب والمسئول الأعلى.

والحاجة إلى إضفاء هالة من القدسية على بعض البشر هى فيما يبدو احتياج بشرى نابع من تركيبة العقل الإنسانى، والكثير من عقد النقص المتراكمة الناتجة عن تجارب قديمة تقوم على الخوف من المجهول. ويَعْكف العلماء منذ فترة على دراسة حال الجنين فى رَحِم الأم واكتشفوا أن الكثير من صفات الإنسان تنشأ داخل بطن الأم ومنها الخوف والرهبة والاحتياج إلى الطمأنينة والأمان من خلال قوة خارجية خفية.

وفى المسيحية لم يكتفِ رجال الكنيسة بإضفاء القدْسية على شخص

السيد المسيح بل قرروا فى أول مَجامعهم وهو مَجمَع نيقية الذى انعقد فى عام 325 بعد الميلاد أن المسيح هو الرَبّ فرفعوه إلى المرتبة الأسْمَى التى لا تعادلها مرتبة فى الوجود.

وعندما اتفق رجال الدين على أن يكون هناك منصب البابا أى زعيم الكنيسة تَفَتّقت أذهانهم عن أن هذا البابا الذى يختارونه لا يَجوز أن يخطىء وبالتالى فقد وضعوا من بين أهم عقائدهم أن بابا روما مَعْصوم من الخطأ.

وقد أثبتت تجارب التاريخ أن تحطيم الأصنام التى تعبدها الشعوب هى السبيل الوحيد لتحرّرها وأن التقدم والرقى والحضارة لها شرط مُسبق لا مَنَاص منه وهو تقطيع أوصال الماضى وإعادة النظر فى الموروث من خلال ما أسمّيه "قتل الأب".

ولا أود أن يتصيد أحد تعبير "تقطيع أوصال الماضى" وينبرى قائلا إن أمة بلا ماض هى أمة بلا مستقبل وهى حقيقة أعرفها تماما وإن كانت غير مُطلقة حيث أن الولايات المتحدة الأمريكية أمة لا يزيد تاريخها على مائتى عام لكن لها حاضرا ولها مستقبلا حتى وان كانت لنا اعتراضات على سياساتها وعلى نظرتها إلى الثقافة بصفة خاصة.

وإذا راقبنا الدول التى تقدّمت فى نصف القرن الأخير وعاشت حقبة ازدهار لا مثيل لها نجد أنها كسرت حاجز تقديس الفرد وليس الرئيس أو الحاكم فحسب وإنما كل من يمثل سلطة مادية أو إدارية أو معنوية أو روحية.

وشاع فى وسائل الإعلام الأمريكية ما يسمى بالعدوانية الإيجابية ويستخدم الفرنسيون تعبير "الوقاحة" الإيجابية أى انتقاد أصحاب النفوذ بشجاعة قد تتعدى حدود اللياقة التقليدية فتَسلب من صاحب السلطة سواء المسئول السياسى أو الأستاذ جزءا من القدسية التى تحيط به والهالة التى يَتَدثر بها ويَحمى نفسه بها من أى انتقاد.

وكانت ثورة الطلبة أو ثورة الشباب التى هزّت الدول الغربية فى نهاية الستينات من القرن الماضى هى بلورة عملية لعملية "قتل الأب" حيث لم يكن التمرّد الشبابىّ موجها ضد السلطة السياسية وحدها وإنما ضد كافة أشكال وأنواع السلطة، وأخذ الطلبة فى جامعة السوربون الفرنسية الشهيرة وغيرها من جامعات فرنسا وأوروبا يَتَعدّون حُدود الأدب واللياقة مع كبار أساتذة الجامعات الذين اعتادوا أن يعامِلهم الطلبة كأنصاف آلهة ويستمعون إلى ما يقولون فى صمت وخشوع. وأخذ الطلبة فى كل مكان يجادلون الأساتذة ويُسَفهون آراءهم عمدا من أجل كسر الحاجز المعنوى بينهم وبين هؤلاء الأساتذة.

وإذا كانت ثورة الشباب فى الغرب قد تعدًّت بعض حدود الاحترام والتبجيل الذى كان يحظى به كل صاحب سلطة آنذاك فإن ذلك قد تمّ بوعى وإدراك تام من قِبَل الطلبة وزعماء الحركة الشبابية بأنهم يَكسَرون المُحَرَّمات ويُحَطمون الأصنام المتمثلة فى شخوص أساتذتهم. كان الشباب يريدون تدمير قداسة مؤسسة "الأستاذية" ومؤسسة "السلطة".

وكانت هذه الثورة الشبابية التى ارتجّت لها فرنسا فى مايو 1968 والتى تسبَّبت بعد ذلك فى الإطاحة بالزعيم التاريخى شارل ديجول لحظة فارقة

وضرورية لفتح صفحة جديدة تذوب فيها الفوارق بين الحاكم والمحكوم وبين الطالب والأستاذ وبين الأب وأبنائه وبين الرئيس والمرؤوس وبين المسئول والمواطن.

وبغير ثورة مماثلة فى مصر والعالم العربى فسوف نظل مُتَمسكين بواحدة من أهم وأخطر عناصر تخلفنا وهى تقديس رموز السلطة والسيادة والنفوذ بكل أشكالهم ومظاهرهم. ويمثل هذا التقديس حاجزا معنويا ونفسيا رهيبا يَحُول دون تحرير العقل ويوصِد الأبواب أمام آفاق التطور والرقى. ومن منطلق ثقافة التقديس لم تتوقف بعض الأصوات فى مصر منذ بداية ثورة 25 يناير عن الارتفاع للمطالبة باحترام رموز السلطة وعدم التجاوز إزاء الكبار والكَفّ عن الشعارات التى تتضمن إهانة لأولى الأمر أو أى انتقاص لقدرهم.

والمشكلة أن غريزة التقديس لا تتجزأ: فتقديس الأب فى الطفولة يرتبط بتقديس الأستاذ فى مرحلة الدراسة ثم الرئيس فى موقع العمل والعمدة وكبير العائلة ويُتوَّج كل ذلك بتقديس الحاكم بصفته الشخص الذى يُجسّد صولجان السلطة والنفوذ منذ عهد فرعون.

وأتوقع هنا أيضا أن يستشيط حماة التقاليد غضبا ويتهموننى بتحريض الشباب والمواطنين على عدم احترام "الكبير" وعدم تبجيل "الأستاذ".

وفى الحقيقية أن هذا ما أطالبُ به تحديدا ودون لفّ أو مواربة ولا أحاول التخفيف من هذا الرأى أو تجميله وتذويقه. نعم أحرِّض الجميع

على تحطيم أصنام السلطة بكافة أشكالها ونزع فكرة القداسة من عقولنا. فاحترام الكبير ليس فرض عين على من هُم أصغر منه ولا هو واجب مقدس بسبب سنّه أو منصبه أو مكانته فى المجتمع. إنما احترامه يَرتَهن باحترامه لنفسه وقيامه بواجباته واضطلاعه بمهمته فى المجتمع وليس لمجرد أنه الأكبر سنا أو أنه مسئول أو أستاذ. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط يكون من حق الأصغر منه التطاول عليه والخروج عن حدود اللياقة والأدب التقليدى للاعتراض على أخطاء هذا الكبير.

وكان السادات يَتَغنّى بتعبير "كبير العيلة" وهو يتصدّى لمن يهاجمونه سياسيا وكان يَعنى بذلك أنه "كبير العائلة المصرية" وبالتالى فإنه يَتوجَّب على كل مصرى احترامه مهما فعل وفى كل الظروف. وأذكر جيدا عندما أطلق هذا التعبير وهو يتحدث عما كان يسمّيه "أخلاق القرية" وكأنها عودة إلى أصالة الإنسان المصرى، لكن ما كان يقصده فى الحقيقة هو التصدى لمن كانوا يتطاولون عليه ويتهجمون على سياسته آنذاك.

والحقيقة أن الالتزام الأعمى بما يُسمّى "أخلاق القرية" و"كبير العيلة" من الأسباب الأساسية فى تخلف مجتمعاتنا وعدم نضجها وهو يَحجِب عنا سبل التطور والتمدّن.

وهذه المفاهيم الموروثة من الماضى لم يَعُد لها وجود إلاّ فى المجتمعات المتخلفة. وطوال عصور التاريخ وحتى الثورة الفرنسية كان الإنسان يُحْترم لذاته ومركزه ومكانته، وكان ابن الأمير أو ابن النبيل يحظى بالاحترام بمجرد ولادته وبغض النظر عن شخصيته وأخلاقه وأفعاله. وقد لخّص هذا المفهوم الكاتب المسرحى الفرنسى بومارشيه حيث جاء على

لسان أحد أبطال مسرحيته الشهيرة "زواج فيجارو" مخاطبا أحد النبلاء: "إن كل المجهود الذى بَذلتَه فى حياتك هو أنّك خَرَجتَ من بَطنِ أمّك". وكان بومارشيه من أهم الكتاب الذين مَهّدوا للثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر.

وكانت ثورة المجتمعات الغربية على عبادة الأصنام من أهم عوامل نهضتها ورقيها. وقد أدركوا أن المسئول الذى يُقصّر فى حقوق مرؤوسيه غير جدير باحترامهم، وأن الأستاذ الذى يُخفق فى أداء واجبه التربوى والمِهَنى غير جدير باحترام تلاميذه، والشيخ الذى يُحرّم على الناس ما يحلله لنفسه والرئيس الذى يفشل فى تحقيق الأمن والسعادة والرفاهية لأفراد شعبه لا يستحق الاحترام لأن الاحترام والتبجيل أمور مُكتَسَبة وليست لاصقة بشخص ما لمجرد سنّه أو منصبه أو صفته وحيثياته.

الشيخ محمد متولى الشعراوى

من أين جاءت هذه المخلوقات التى تبدو لى وكأنها ديناصورات عادَت إلى الدنيا بعد قرون من اندثارها فظهرتْ بصور لم يَعُد يَعهدها الناس منذ قرون؟ من أين هَبَطَ علينا هؤلاء الذين يُطلون ذقونهم بالحِنّة ويُشهرون على جباههم زبيبة لا وجود لها خارج الحدود المصرية، ويرتدون جلاليب بيضاء قصيرة ولا يَكفون عن الصياح والتشويح والتلويح والتخويف والترويع والوَعيد على شاشات التلفزيون أو عندما يَعْتلون منصّات الخطابة والاجتماعات الدينية؟

مَنْ ينظر إليهم يتصوّر أنهم اخترقوا حاجز الزمن بآلة شبيهة بتلك التى تخيّلها الكاتب البريطانى هـ. ج. ويلز فى كتابه الشهير "آلة الزمن" وخرجوا من البيئة الصحراوية القاحلة فى القرن السابع وانقضّوا علينا

لإرهابنا وإدخالنا الجحور أو كأنهم أهل الكهف ناموا سنوات أو قرونا ثم عادوا إلى الدنيا وهم يتصوَّرون أن شيئا لم يتغير بها.

والكارثة أن عامة الناس يَنطلى عليها خطاب هؤلاء الأفاقين المحترفين من تجار الدين ودراويش التَعَصّب لسبب بسيط وهو أن إعلام الدولة ترك لهم الساحة طوال أربعين عاما كاملة تحت حُكميّ السادات ومبارك يصولون ويجولون ويَعبثون بعقول الناس، و لم يَكتفِ بذلك بل مَنَعَ كلَ من حاول أن يتصدى لهم من فتح فمه بكلمة واحدة.

وبرغم هيمنة الدَجَل والدروشة والاحتيال باسم الدين منذ قرون طويلة فإن مصر أَنجَبَت على مرّ السنين والقرون شيوخا وعلماء جديرين بالتقدير وخاصة منذ عصر النهضة الذى كان رائده الأول شيخ مُعَمَّم دَرَسَ بالأزهر وهو رفاعة الطهطاوى. وقد أدرك الرجل بعد إقامته خمسة أعوام فى فرنسا أنه لا بد من تطوير النظرة إلى الدين وأن الجمود العقائدى والتحجر الفكرى هما السبب الرئيسى فى بلاء الشعب المصرى وتخلف البلاد وسقوط أهلها فى براثن الفقر والجهل والمرض وليس البُعد عن الدين وإهمال تعاليمه كما كان يدَّعى البعض آنذاك وحتى الآن.

ومنذ بدايات القرن التاسع عشر ظهرَتْ إرهاصات حركة إصلاحية داخل الأزهر الشريف ربما كان أحد أبرز روادها الأوائل الشيخ حسن العطار وكان مُعلم الطهطاوى وأستاذه.

ووسط ظروف الاحتلال البريطانى لمصر اِعْتَمَل الأزهر بحركة تنويرية

وبَرَزت أسماء غيَّرت الكثير من المفاهيم التقليدية التى أدّت قبل ذلك إلى تجميد الفكر وشلّ العقل المصرى والعربى. وبالتأكيد أن ألمع ممثلى هذا التيار هو الإمام العظيم محمد عبده وهو يَستحق عن جدراة لقب "إمام" الذى يُطلق منذ عقود على من ليسوا جديرين به من دعاة انغلقوا على الماضى و لم يأتوا بأى جديد بل ردَّدوا كالببغاوات ما خلفه السلف.

وتوالى دعاة التطور والانفتاح على العالم الخارجى من الشيخ الجليل الأحمدى الظواهرى والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق. كان لكل واحد من هؤلاء مواقف مشرفة ورؤية للحياة واجتهاد يَرقى إلى مستوى كبار المجتهدين فى القرون الأولى للإسلام.

و لم يكن هؤلاء مُتبحِّرين فى علوم الدين والفقه والشريعة فحسب، فهذه أمور مفروغ منها بالنسبة لعلماء الدين. لكن كل هؤلاء الشيوخ الذين ذكرتُهم كانت لديهم معرفة مُتَعمِّقة بالفلسفات القديمة والحديثة وكانت لديهم دراية بالأدب والإبداع وكانوا مؤمنين بدور العلم والفن ويَحُضّون على الانفتاح على العالم الخارجى. باختصار لم ينغلقوا على ما أورثه السلف من تراث وأدبيات و لم يتصوروا أن السلف جاءوا بالحقيقة المطلقة التى ما بعدها وما قبلها حقيقة.

وكما كتبتُ مِرارا فقد كانت هزيمة يونيو 67 منعطفا تاريخيا خطيرا لمصر والعالم العربى بل للعالم الثالث أجمع. فالنكسة جعلت الناس تَكفر بكل المبادىء التى رَوَّجَت لها السلطة منذ ثورة 23 يوليو 1952، وجعلتْ

الناس تَميل إلى التقوقع على القيم والشرائع الدينية التقليدية وظهر الدين كبديل للوطنية وللفكر القومى.

ولأن السادات اختار منذ اليوم الأول أن يَسير فى الطريق المعاكس لجمال عبد الناصر فقد ارتأى أن أفضل وسيلة لَمسْح الإرث الناصرى من الوجود هو إعادة بعث النزعة الدينية والاعتماد على إغراق عقل المجتمع بالخطاب الدينى التقليدى الطاغى من أجل القضاء على الأفكار والنظريات التقدمية والاشتراكية واليسارية التى كانت طبقة المثقفين والمتعلمين لا تزال متمسكة بها بعد وفاة عبد الناصر، فى وقت كانت فيه الشيوعية تحتضر فى العالم لأسباب ليس مجال شرحها هذا الكتاب.

وإذا جادَلنى أحد رافضا وغاضبا ونافيا عن بعض رجال الدين الذين وضعهم الإعلام فى بؤرة الضوء الساطع وجعل منهم نجوما يَهتدى بها البسطاء أنهم استخرجوا من القرآن والسنة ما يُناسِب الحاكم وسياسته فسوف أكتفى بما حدث فى المواجهة مع إسرائيل على مدى العقود الماضية لأثبت له خطأه.

فعندما كان نظام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ينتهج سياسة المواجهة والعداء لدولة إسرائيل ويَسعَى لتعبئة الشعب وتجنيده وراء تلك السياسة كان رجال الدين الرسميين يُبرِزون الآيات القرآنية المؤيدة والمعضّدة لتلك السياسة منها الآيات التى تدلّ على أن الشهداء فى الجنة وأشهرها: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران – 169).

لكن أهم أية فى ترسانة علماء ذلك العصر كانت الآية الكريمة التى تقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال– 60).

لكنه بعد حرب أكتوبر وعندما أحدث السادات "شقلبة" كاملة فى السياسة المصرية وقرّر التحالف مع الولايات المتحدة وما يتلو هذا الخيار الاستراتيجى من ضرورة السلام مع إسرائيل اختفت آيات الجهاد فجأة وبقدرة قادر من ساحة الوعظ الدينى وبدأت تظهر آيات مناقضة لها تُحضّر الناس نفسيا للسلام وتجعلهم مقتنعين بأن الإسلام "يُبارك" عملية السلام مع إسرائيل وعلى رأسها تلك الآية الكريمة التى تقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال– 61).

وفى أعقاب نكسة 5 يونيو 67 بقليل بدأ يبزغ نجم شيخ يتمتع بمقدرة كبيرة على الكلام وبحِرَفيّة بلاغية عالية من النوع الذى يُعجب البسطاء. وكان هذا الرجل هو الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى سَحَر الملايين بأسلوبه الجذاب والمُبسَّط القريب من العامة مع استخدام بعض التراكيب المُعقدة والطلاسم اللفظية التى لا يفهمها الناس فتؤثر فيهم تأثيرا أكبر كثيرا مما لو فهموها واستوعبوها، فكان تأثيره أشبه بتأثير المنوِّم المغناطيسى المحترف.

وقبل أن أسترسل فى هذا الفصل لا بد أن أقرَّ بأننى أعِى تمام الوعى أن الشيخ الشعراوى يحظى بشعبية لا مثيل لها فى مصر وما زال إلى يومنا

هذا صَنَما لا يُمس ولا زال يؤثر حتى الآن على عقول الملايين، ولا زالت حواراته وخطبه تذاع فى التلفزيون والإذاعة حتى أننا نراه على الشاشة الصغيرة أكثر من الشيوخ الأحياء أنفسهم. لذلك فلن أذكر عنه كلمة لم يتفوه بها بنفسه سواء مُسجّلة فى شريط أو فى كتاب أو فى حوار فى جريدة لم يتم تكذيبه وبعضها من الذاكرة المؤكدة وهى أيضا موثقة.

وبعد هذه الملاحظة التى حرصتُ على إبدائها أحبُّ أن أنوه إلى أن الشيخ الشعراوى لم يكن أبدا يعزف عن الإعلام بل كان حريصا على الظهور به. وقد رَوَى لى الإعلامى طارق حبيب قصة أول لقاء له فى حياته مع الشيخ الشعراوى حيث فوجىء بالشيخ الكبير يبادره قائلا: "لا.. أنا زعلان منك". وانزعج طارق حبيب لأنه لم يفعل ما يستوجب زعل الشيخ. واستطرد الشعراوى قائلا: انت عمرك ما دعيتنى فى البرامج بتاعتك.

وكانت هذه الجملة مناسبة لدعوة الشيخ الشعراوى فى أول حلقة من برنامج شهير لطارق حبيب هو "من الألف إلى الياء".

وشيئا فشيئا صار الشيخ الشعراوى يُطلّ على الناس بصفة منتظمة من شاشات التلفزيون وتُسلط عليه الأضواء الإعلامية لإعطائه أكبر فرصة مُمكنة لبثّ آرائه وأفكاره بين الناس مستخدما مرجعية الدين فى مجتمع كان قد فَقَدَ مرجعياته وكان يترنّح نفسيا وفكريا بعد النكسة وأصبح فى حاجة إلى طوق نجاة يُخرجه من النكبة المَعنوية التى حَلّت عليه بسبب

الهزيمة، وكان هذا المجتمع فى أمَسِّ الحاجة إلى مَنْ يفتح له طريقا جديدا غير الطريق الذى سلكته السلطة وبشّر به الكتاب والمثقفون قبل ذلك. كانت الهزيمة العسكرية القاسية فى يونيو 1967 قد أصابت الجميع بالذهول وفقدان الاتزان وكانت مصر فى حاجة إلى من يُشيع جوا من الطمأنينة فى النفوس من خلال تخطى الواقع المرير والتمسك بالأمل ولو عن طريق الغيبيات.

وقد أدرك الشيخ الشعرواى المَغزَى العميق للنكسة والدليل على ذلك أنه تفجَّرَت بداخله فرحة عظيمة عندما علم بهزيمة يونيو 67 التى رأى فيها نهاية الدولة العلمانية وإيذانا بعودة الدولة الإسلامية. وهذا الكلام ليس تحليلا من عندياتى أو تفسيرا من جانبى لكلام الشيخ. فقد صرَّح فى حوار تلفزيونى مُسَجّل بأنه عندما عَلِم بهزيمة الجيش المصرى فى يونيو 1967 وكان بالمملكة العربية السعودية قام وصَلّى ركعتين لله وسجد للخالق شاكرا على هذه النعمة.

وأنقل الآن نصا من شريط الحوار الذى أهداه لى الزميل طارق حبيب لبرنامجه الشهير "من الألف إلى الياء" المُسجّل عام 1989 حيث يقول الشعراوى بعد أن أفصَحَ عن موضوع صَلاته شكرا لله على الهزيمة: "نُقِدتُ ممن حَضَرَها وأوّلهم وَلَدى".

ثم يُنبئنا بالتفسير الذى أعطاه لابنه لأسباب فرحته قائلا: "فَرِحت أننا لم ننتصر ونحن فى أحضان الشيوعية لأننا لو نُصِرْنا ونحن فى أحضان الشيوعية لأصِبْنا بفتنة فى ديننا".

فتخيل معى أيها القارىء الكريم نفسية تبتهل للسماء شكرا لهزيمة جيش بلادها واستشهاد ما يناهز عشرة آلاف جندى مصرى سالت دماؤهم الزكية فى رمال سيناء دفاعا عن أرض الوطن. ولو أن رجل دين ألمانى أبدى سعادته لهزيمة الجيش النازى فى نهاية الحرب العالمية الثانية مثلا لربما فهمنا دوافعه لأن هتلر كان يحارب حربا عدوانية وقام بغزو بلاد كثيرة وتسبب فى قتل ما يزيد عن 60 مليون من العسكريين والمدنيين فى أكبر مجزرة عرفتها الإنسانية.

والأهم من هذا وذاك أن هزيمة هتلر والجيش النازى كان معناها انتهاء الحرب والدمار وحقن بحار الدماء التى كانت تسيل فى العالم كله.

أما حرب 67 فقد تعرَّضتْ فيها مصر لعدوان سافر واعترف الإسرائيليون بأنهم أخذوا مبادأة الهجوم كما أن القضية التى كان يدافع عنها الجيش المصرى هى قضية عادلة ظلت أجيال من المصريين والعرب يدافعون عنها.

ومهما بحثنا وقلبنا فى الأمر فلن نجد مُبرِّرا منطقيا أو إنسانيا واحدا يجعل أى إنسان سوىّ يَسْعد لهزيمة الجيش المصرى فى يونيو 67. لكن الشيخ الشعراوى كان يرى وراء هذه الهزيمة انتصارا لفكره ومبادئه وهى تطبيق شريعة الله كما يراها هو على الأرض واستئصال شأفة كل من يسعى لتحكيم العقل المُجَرَّد والبحث عن القوانين الوضعية التى تساعد الإنسان على تقليل أسباب الشقاء وزيادة فرص توفير حياة مادية رغدة للمجتمع.

ونعرف من باقى الحوار أن الشيخ الشعراوى سَجَدَ لله شكرًا وعرْفانا مرة أخرى بعد نصر أكتوبر 73 "لأننا لم نكن فى أحضان الشيوعية" على حد قوله والأهم من ذلك، أيضا على حد قوله، هو أن النصر جاء لأنه تمَّ تحت شعار "الله أكبر" التى أطلقها الجنود لدى عبور قناة السويس، ويضيف قائلا إنه بعد العبور "قال البعض إن النصر حضارىّ وقال لى صديق: أخشى من آثار هذه الكلمة فنحن نُنكر فضل الله فى شعار الله أكبر".

ثم يستطرد الشعراوى قائلا بكل هدوء "فجاءت فَتحَة الدفرسوار" ويقصد بذلك الثغرة التى تمكّن بفضلها الجيش الإسرائيلى من العبور إلى الضفة الغربية للقناة ومحاصَرة مدينة السويس وقد مكنته هذه الثغرة من تحسين موقفه التفاوضى.

ويرفع الشيخ الشعراوى أصبعه إلى أعلى بثقة وهو يقول: "والله لو أنهم ثَبَتوا عليها و لم يرُدّوا فضل الله فى شعار الله أكبر لما انتهينا إلا فى تل أبيب".

والمعنى الأول الواضح لهذا الكلام أن الله قد عاقب الشعب المصرى بأسره لأن "البعض" قال إن النصر كان نصرا حضاريا وأنكر أنه نصر دينى، وحَرَم الله الجيش المصرى من النصر وسَمَح بالثغرة التى مات فيها مئات من جنودنا البواسل لمجرد أن "البعض" قال إنه نصر حضارى.

أما المعنى الآخر المُبَطن فى كلام الشيخ فهو أنه يكفى أن نَصيح بأعلى

أصواتنا "الله أكبر" حتى يتحقق لنا النصر بل ودخول تل أبيب وتصفيه دولة إسرائيل. مع أن الانتصار فى المعارك يتطلب الجهد والخطة المحكمة والإعداد والتدريب والأسلحة والذخائر، ولا ينصر الله قوما لا يقومون بتوفير أسباب النجاح والانتصار. وطبعا هذا الكلام لا ينسحب على الجانب العسكرى وحده، لكن من يُصدِّق كلام الشعراوى سوف يقتنع أنه يكفى أن يقول "الله أكبر" ليحقق ما يتمناه بغض النظر عن المجهود الذى يبذله لإنجاز ما يَصبو إليه.

وبعد اغتيال السادات كانت دولة مبارك واعية تمام الوعى للمكانة المتناهية الضخامة التى ارتقى إليها الشيخ الشعرواى وأنه أصبح نصف إله فى عيون غالبية أفراد الشعب بفضل توليفة من العوامل على رأسها الظروف التى كانت تمرّ بها مصر والعالم العربى من ناحية وعودة هيمنة الدين على عقول الناس من ناحية أخرى وفتح أبواب الإعلام على مصراعيها للرجل بأساليب صناعة النجوم المعروفة، وأخيرا وليس آخرا بفضل ما أوتى به من فصاحة اللسان ومن الحُجة التى تتماشى مع عقلية الإنسان البسيط ومع ثوابت الثقافة التقليدية.

وكانت دولة مبارك تتصور أن مصلحتها العليا هى-توظيف الشيخ الشعراوى.بما يتمتع به من شعبية جارفة ومصداقية كاسحة لدى البسطاء من أجل مواجهة تيار الإسلام السياسى والمزايدة عليه من داخل مَنطقه، أى من منطق دينى روحانى، لكن مع تعديل أساسى وهو أن يكون تطَبيق

تعاليم الدين كما يراها الحاكم وليس كما يراها دعاة الإسلام السياسى المعارضين لنظام الحكم والذين كانوا يَتَمَثلون بصفة أساسية فى جماعة الإخوان المسلمين، لذلك فلا ينبغى أن نستغرب أنه كان ينتقد الإخوان. وعلى أية حال فإن رسالة الشعراوى كانت تحتوى على فوائد أخرى كبيرة للنظام كما سأحاول أن أفسر فى السطور التالية.

ومنذ بداية المدّ الإسلامى أو بمعنى أدق الإسلام السياسى فإن شخصية الشيخ الشعراوى كانت الشخصية المحورية التى هَيمَنت على الساحة وسَعَت لأن تلعب دورا لزيادة مساحة الدين فى الحياة العامة على الطريقة التقليدية فى عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين وأن يكون الدين هو المرجعية والمعيار الوحيد الذى يُرْجَع إليه فى كل أمور الحياة.

ويَعلم من يقرأ التاريخ أن الأساس الأيديولوجى لهذه المدرسة الفكرية هو أن يكون الدين فى خدمة السلطان والطبقة الحاكمة والوجهاء ويساهم فى تخدير العقول من أجل خضوع الناس طائعين مُستسلمين للحاكم الذى يعتبرونه ظلّ الله على الأرض وهو نفس الدور الذى لعبه الدين المسيحى طوال العصور الوسطى فى أوروبا.

وقد لا يكون بعض أتباع هذه المدرسة التقليدية من أتباع السلطة والحكام بالضرورة، وقد تكون لهم آراء معارضة فى الكثير من الأمور الفرعية، لكن قناعتهم الراسخة هى أن المجتمع لا يستقيم دون سلطة مركزية قوية الشكيمة وشديدة البأس تَبسِط نفوذها على الجميع وأن هذه

السلطة لا يمكن إلّا أن تعتمد على الدين كأساس يجعلها تحظى بطاعة الشعوب وخضوعها لأن الخضوع لأحكام السماء لا بد عندهم أن يكون مقرونا بطاعة أولى الأمر فى الأرض.

واستثمر الشيخ الشعراوى شعبيته الطاغية وحُبَّ الناس له إلى حد يُقارب التقديس فوَجَّه المجتمع فى اتجاه مُعَيَّن، وكانت لديه رسالة واضحة تتوافق مع إرادة الدولة وسياستها ولا زالت هذه الرسالة هى المهيمنة حتى الآن على العقول مما يفسّر استمرار شعبيته حتى الآن.

وأذكر أنه بعد نشر حواره مع طارق حبيب الذى أشرت إليه من قبل زار باريس الإعلامى الكبير الأستاذ أمين بسيونى وكان من أبرز معاونى وزير الإعلام آنذاك، وقد قال لى حرفيا: "لقد وَضَعَنا الشيخ الشعراوى فى موقف حَرِج بتصريحاته". ثم أضاف جملة لا زالت ترِن فى أذنى: "احنا دلوقتى مضْطرِّين ندوّر له على بَديل".

ولمن لا يفهم مغزى هذا الكلام فمعناه أن الشيخ الشعراوى كان يؤدى مهمة معينة لمصلحة الدولة وكانت شعبيته الساحقة تجعله ناجحا نجاحا مُبْهرا فى تلك المهمة، لكنه الآن لم يعد قادرا على أن يضطلع بالمهمة بنفس الكفاءة ولو مؤقتا، وبالتالى فلا بد من البحث عن داعية آخر يقوم بنفس المهمة.

وفى هذا التوقيت ظهر الكثير من الدعاة وبدأت عملية "تلميعهم" على شاشات التلفزيون وفى الإذاعة ولا أريد أن أذكر أسماءهم هنا.. لكن

أحدا منهم لم يصل إلى مستوى تأثير الشيخ الشعراوى ولا حتى اقترب منه. وبعد انزواء لم يدم طويلا عاد الشعراوى إلى الساحة وعاد يُمارس تأثيره الساحر على الناس ونسى الجميع ما قاله عن سعادته لهزيمة الجيش المصرى.

ومن الروايات التى أكّدت فى ذهنى عشق الجماهير للشيخ الشعراوى قصة نقلها لى خالد الخميسى وهو ابن شقيقتى وقد وقعتْ له فى منتصف التسعينات من القرن الماضى وهو يستقل سيارة تاكسى فى القاهرة، وقد استلهم من ركوب التاكسى واحدة من أجمل الكتب التى قرأتها من فترة وهو بعنوان "تاكسى" ولاقى رواجا كبيرا منذ بضعة أعوام. وللأسف أن خالد لم يسرد هذه القصة التى رواها لى وأسمح لنفسى أن أطلِع عليها القارىء لإبراز مدى مكانة الشيخ الشعراوى عند الناس واعتباره وليا وصنما لا يمس.

المهم أن خالد ركب إلى جوار السائق ثم جاء راكب آخر جلس فى المقعد الخلفى. وكان كاسيت التاكسى مفتوحا على لقاء مع الشيخ الشعراوى فما كان من الراكب الآخر إلا أن علق قائلا إن هذا الشيخ قد جمع ثروة طائلة من الأحاديث الدينية ويمتلك قصرا فى الطريق الصحراوى إلى جانب مُمتلكات أخرى.

وفجأة سمع خالد صوت فرملة عنيفة ارتج لها التاكسى قبل أن يتوقف على جانب الطريق واستدار السائق صائحا فى الراكب: انزل يا ابن

الكلب.. كيف تجترىء على الشيخ الشعراوى بهذا الهراء، ابحث لك عن تاكسى آخر.

وحاول الرجل أن يفتح فمه مدافعا عن نفسه لكن السائق قال بعصبية بالغة: "لو فتحت فمك بكلمة أخرى فسوف أنزل وأضربك علقة ساخنة".

لكن تعالوا معى نقوم بتحليل سريع لمجموعة من الرسائل التى ظل الشيخ الشعراوى يبثها بانتظام لأكثر من ثلاثين عاما وكانت تصُبّ دائما فى صالح الأنظمة الحاكمة؟

ولا شك أن أول هذه الرسائل وأهمها على الإطلاق هى طاعة أولى الأمر وكانت هذه الفكرة متواجدة بصورة أو بأخرى فى معظم خطبه من البداية حتى النهاية. وأكاد أجزم بأن الغالبية العظمى من الشعب المصرى لا تعلم ما قاله الشيخ الشعراوى عن السادات خلال إحدى جلسات مجلس الشعب.

واسمحوا لى أن أسْردُ فى إيجاز تلك الواقعة وهى بالتأكيد مُسجّلة فى التليفزيون والإذاعة وأتمنى أن يجد أحد الشجاعة لإعادة بثها. كانت المناسبة جلسة مجلس الشعب التى انعقدت يوم 20 مارس 1978 وكانت تتضمن استجوابا للشيخ الشعراوى بصفته وزيرا للأوقاف حول تجاوزات سكرتير عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف، وكان هذا الرجل على خلاف حاد مع وزيره ويتخطاه فى كل صغيرة وكبيرة.

ما يهمنى هنا هو أن الشعراوى ألقى كلمة يؤيد فيها صاحب الاستجواب لأن هذا الاستجواب كان فى صالحه ويحقق له ما يريد وهو التخلص من مرؤوسه الذى يُسبب له الإزعاج.

وأذَكِّر القارىء الكريم بأن هذه الجلسة انعقدت فى أجواء متوترة كانت تمرّ بها مصر بسبب الحملة العنيفة ضد سياسة الصلح المنفرد مع إسرائيل وكانت هذه الجلسة بعد زيارة القدس الشهيرة فى سبتمبر 1977 بخمسة شهور وقبل عقد اتفاقات كامب ديفيد بستة أشهر.

وبدون مناسبة شنَّ الشيخ الشعراوى هجوما لاذعا على مراكز القوى وألمح أنه لم يكن بوسع أحد أن يفتح فمه فى عهد عبد الناصر وأن السادات جَعَل الكل آمنين على أنفسهم وقادرين على النقد وينعمون بالحرية.

ثم كانت الجملة التى خرجت من فم الشيخ الشعراوى فى غَمرة حماسته وهو يتحدث عن السادات وهى: "والذى نفسى بيده لو كان لى من الأمر شىء لحَكَمتُ لهذا الرجل الذى رَفَعَنا تلك الرّفعة وانتشلَنا مما نحن فيه إلى قِمَّة ألاّ يُسْأل عَمّا يَفعل".

وفى هذه الكلمات الأخيرة إشارة واضحة إلى الآية الكريمة التى تقول ﴿لا يُسْأل عَمّا يَفعل وهم يُسْألون﴾ (سورة الأنبياء – 23) ومعروف أنها آية تتعلق بالله سبحانه وتعالى.

وقد نفى الشيخ الشعراوى بعد ذلك فى حواراته أنه نطق بهذه الجملة. وفى عدد مجلة "آخر ساعة" بتاريخ 1995/3/19 (صفحة 25) يقول حرفيا: "أنا لم أقل هذه العبارة على النحو الذى يقولونه. هل من المعقول

أن أقول إن السادات لا يُسأل عن فعله؟!"

وأدعو من يشك ويُصرّ على عدم التصديق إلى الرجوع لصحيفة الأهرام بتاريخ 1978/3/21 بالصفحة الخامسة (العمود السابع) ليجد الكلمات التى ذكرتُها على لسانه كلمة كلمة، أو أن يرجع إلى مضبطة هذه الجلسة بمجلس الشعب إن لم يكونوا قد حذفوا منها هذه العبارة، وهذا ما أتوقعه.

وبعد السادات لم يبخل الشعراوى بالمديح والإطراء على شخص مبارك وبالتصريحات التى ترفع من شأن الرئيس السابق، فقال على سبيل المثال لا الحصر: "مكانة حسنى مبارك الكل مُجمِع عليها، وهو مَكتوبٌ له التوفيق والقبول فى الأحداث العنيفة التى مرت بها الأمة العربية فى السنوات الأخيرة" (مجلة آخر ساعة- 1995/4/5 صفحة 24)، ثم فى العام التالى "إن حاكم مصر لم يأمرْ بما يخالف الشرع" (مجلة المصور عدد 3720 بتاريخ 1996/1/26)

واتساقا مع رسالة طاعة أولى الأمر تأتى رسالة أخرى تُعْفى الحاكم والطبقات الحاكمة من المسئولية فى حالة البؤس والشقاء التى تعيش فيها غالبية أبناء الشعب وتُحمِّل مسئولية ذلك للأقدار ولإرادة الله، وهو كلام يتعارض فى رأيى مع صميم الرسالة الدينية التى تضع على كاهل الإنسان المسئولية الأولى لحياته على الأرض بل الأكثر من هذا أنها تُحمِّله المسئولية الأولى عن مصيره بعد الموت حيث أنه لو اقتَرَف المعاصى وظلَمَ العباد فإن مآله النار، ولو صنع الخير وأصلح فى الأرض فإن مكافأته هى الجنة.

وكان من أغرب ما سمعت بصوت الشيخ الشعراوى بهذا الصدد فى نهاية السبعينات ما رواه عن رجل يَترك داره كل يوم بَحثا عن عمل وهو من أجل ذلك يَتَغيّب كثيرا ويُهمل زوجته وأولاده، وتبدو نبرة الاستخفاف فى صوت الشيخ الشعراوى وهو يوجّه خطابه إلى هذا الرجل قائلا: "يا رجل إن الله قسم لك رزقا محسوبا ولو "لفيت" الدنيا كلها فلن تحصل إلا عليه وإذا قدّر الله فإن الرزق سيأتى إلى باب منزلك ويطرق الباب عليك بنفسه".

ولولا أنى سمعت هذا الكلام بأذنى ما صدقته. فهذه دعوة صريحة إلى التواكل والتراخى والتكاسل والإحجام عن الاجتهاد والتقاعس عن أداء الواجب والسعى من أجل الحياة.

والخلاصة التى لا بد أن يصل إليها كل من يستمع إلى هذا الكلام سواء أكان رجلا بسيطا أو مثقفا أن الفقير فقير لأن الله يريده كذلك و لم يَقسِم له الرزق، والغنى غنى لأن تلك هى إرادة الله، وبالتالى فإنه ليس على الفقير أن يغضب أو يتمرد أو يعترض على أوضاعه وإنما عليه أن يرضَى بقضاء الله لأن الفقر والمرض والجهل هى مصير مكتوب فى السماء خاصة وأنه سيُعوَّض فى الآخرة عما عانى منه فى الأرض.

ربما تحدّث الشيخ الشعراوى فى مواضع أخرى عَرَضا عن أهمية العمل، وقام بالتفريق بين التَعَب النفسى والتعب الجسمانى، لكن الرسالة الأساسية التى تضمنتها هذه القصة عن الرجل الذى يبحث عن عمل هى التى ستبقى عالقة فى خيال الناس ووجدانهم.

وإذا حاولنا تتبع غالبية الأفكار المُحافِظة والمُنغلقة السائدة على الساحة الآن سوف نجد أن جذورها موجودة فى التعاليم التى بثها الشيخ الشعراوى منذ النكسة. ومن أبرز هذه الأفكار أن الدين لا يَمنح المسلم السكينة النفسية فقط لكنه يمنحه الاكتفاء الذاتى التام وبالتالى فأى إنسان راسخ فى الإيمان لا يحتاج إلى أى شيء خارجى، فهو يستغنى بتلاوة القرآن عن القراءة والطرب والغناء والاستمتاع بكل ألوان الفن والترفيه والثقافة.

وأقتطعُ من كتاب "من الألف إلى الياء" الصادر عن "المركز العربى الحديث" (ص59) وهو تفريغ للحوار التلفزيونى الذى أشرتُ إليه من قبل هذا السؤال والجواب:

هل تستمع إلى الغناء والموسيقى؟

أجاب الشيخ: لا.. لأنّ ما معنى الاستماع إلى الغناء؟ هو طلب انسجام مَلَكات الروح. ثم يضيف أنه يقرأ جزء قرآن ويُصَلى ركعتين وهذا هو الانسجام بالنسبة له وليس الغناء والموسيقى. ويعترف فى الإجابة عن السؤال التالى أنه طلب من الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب اعتزال الفن وقال له: "يا أخى انت خلّوك تغنى ليه؟".

لكن الأمر لا يقتصر على الفن والطرب وحدهما بل يتعداهما إلى أية معرفة غير دينية. وقد استمعتُ إليه فى الثمانينات يجيب على سؤال إحدى المذيعات عن آخِر كتاب قرأه بأنه لم يقرأ كتابا منذ أكثر من عشرين

عاما!! وتعجبتُ أنه يجهر بذلك والمفترض أنه يَهدى الناس ويُرشدهم إلى الحق فكيف يؤدى هذه المهمة الخطيرة وهو لم يقرأ كتابا من عشرين عاما؟ وازداد تعجبى حين علمتُ مبرره الذى أعتبره عذرا أقبح من ذنب حيث قال إنه لا يقرأ إلا القرآن الكريم لأن كتاب الله يحتوى على كل شىء وعلى كل الحقائق وأن من يقرأ القرآن يستغنى به عن أى كتاب آخر.

وفى حواره بمجلة المصور (عدد 3383 بتاريخ 1989/8/11) يقول الشيخ الشعراوى ردًا على هذا السؤال: هل قرأت رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ؟:

"لم أقرأ له ولا رواية".

وعاد المحاور يُلحّ على الشيخ: "أعتقد – كمثقف عام – لا بد أنك قرأتَ أو سمعتَ عنها وعن ظروفها وعن موقف الأزهر منها؟"

فيجيب الشعراوى: "والله.. لا أقرأ له.. وأعتقد أن ربِّى يُبعِدنى عن أى شىء يُورِث فى شخصى القلق النفسى".

وأترك لك أيها القارىء الكريم تقييم شخص يتحدث بمثل هذا المنطق مع تعليق مختصر من جانبى وهو أنه لو تفوّه شخص ذو حيثية بمثل هذا الكلام فى أى بلد من البلدان المتقدمة أو نصف المتقدمة وصرَّح بأنه لم يقرأ كتابا واحدا لأكبر كتاب بلاده لفَقَدَ مصداقيته على الفور ولانفضّ عنه الجميع لأنه يدعو الناس بوضوح إلى أن يعيشوا كالبهائم السائمة يأكلون ويشربون ويبتعدون عن القراءة وعن التفكير الذى قد يثير القلق فى نفوسهم.

وإذا كان المؤمن يحتاج احتياجا أساسيا للقرآن فلأن كتاب الله يُمِدّه بغذائه الروحى واحتياجاته النفسية ويُرشده لطريق الصلاح لكنه فى حاجة إلى كتب فى كافة المجالات لاستكمال بناء شخصيته والاطلاع على أفكار غيره، ومن لا يقرأ كتابا يكون ضحلا ومسطحا.

ومن الواضح أن الشيخ الشعراوى لم يكن كذلك وأنه قرأ الكثير من الكتب كما كان يحفظ الكثير من الشعر، فما هو مبتغاه من دعوة الآخرين إلى عدم القراءة؟

وعند سماع هذا الرأى استرجعتُ جملة بليغة قالها الشيخ محمد عبده استَوْقفتنى حين قرأتها منذ سنوات طويلة وبحثتُ عنها طويلا وأنا أكتب هذا الكتاب حتى وجَدتُها فى الجزء الثالث من كتاب د. محمد عمارة "الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده" فى فصل يقوم فيه باستعراض أصول النصرانية وأنقلها لك حرفيا أيها القارىء الكريم: "إن الجهالة أمّ التقوى" ثم يضيف "وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يَجْرُون على هذه القاعدة ببَرَكة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر".

وكلام الشيخ الشعراوى يحضّ على الجهالة التى يتحدث عنها محمد عبده أى بمعنى الابتعاد عن المعرفة والقراءة والعلم ويعتبر أن القراءة تُلهى عن الدين وتعوّق الإيمان.

وهناك مئات من الأراء والفتاوى طرحها الشيخ الشعراوى تحتوى على رسائل مُبَطنة تنفى أهمية العلم والمعرفة. وأذكر أنه فى إحدى خطبه

الشهيرة فى التسعينات شكا من أن الأقمار الصناعية أصبحت "مُوضَة" وأن الدول الكبيرة تُنفق الملايين من أجل إطلاق أقمار فى الفضاء فى الوقت الذى يُعانى فيه ملايين البشر من الجوع على الأرض، ولو أنهم خصصوا هذه الأموال لمساعدة الفقراء لحلت مشكلة الفقر من الأرض. ثم أمسك بورقة فى يده قائلا: "الكلينكس ده أهمّ عندى من القمر الصناعى لإن له فايدة: بامسَح بيه وِشّى".

وقد يبدو هذا الكلام منطقيا للوهلة الأولى وأن الفقراء أولى بالأموال الطائلة التى تُنفق على التقدم العلمى وأبحاث الفضاء. لكن واقع الأمر أن هذه الفكرة تدمِّر فكرة التقدم والحضارة من أساسها، فلو خصّصَت المجتمعات كافة مواردها لإطعام الأفواه لَمّا كانت هناك ميزانيات للبحث العلمى والطبى ولظل الإنسان فى حالة من التخلف ويكتفى بالأكل والشرب فى الوقت الذى يعانى فيه من الأمراض التى لا يجد لها العلماء شفاء بسبب عدم توفر الإمكانيات المادية، ولَمّا تقدمت الصناعات ولا التكنولوجيا الحديثة لأن كل هذا التقدم مبنى على البحث والدراسات ولو طبقنا هذه النظرية لكان الإنسان لا زال يأكل طرحَ الأشجار.

ولن أهينَ عقل القارىء الكريم بأن أستعرض هنا الفوائد المتناهية الأهمية للأقمار الصناعية ليس فى مجال الاتصالات والتلفزيون والنتّ فقط وإنما أيضا فى مجال الزراعة والطيران ومعرفة المناخ وتوقع حالة الطقس وهناك آلاف بل ملايين التطبيقات المفيدة للإنسان من وجود الأقمار الصناعية فى الفضاء الجوى الآن وعددها لحظة كتابة هذه السطور 2630 قمرا صناعيا تدور فى فلك الأرض، ولو اختفت من الفضاء وفضّلنا عليها "الكلينكس"

لحدثت انتكاسة خطيرة فى حضارة الإنسان وفى حياة الناس اليومية.

كما أننى لست فى حاجة إلى إقناعك أيها القارىء العزيز بأهمية العلم فى حياة الناس حتى أن عبد الرحمن الكواكبى عندما سَرَدَ أسباب "الفتور" ويعنى بذلك "التخلف" فى كتاب "طبائع الاستبداد" وضع من أهمها "مُعاداة العلوم العالية إرتياحاً للجهالة والسفالة".

وكما أوردتُ فى كتاب "مستقبل مصر بعد الثورة" فإنه عندما اعترضتُ على كلام الشيخ الشعراوى عن الأقمار الصناعية أمام وزير الإعلام الأسبق صفوت الشريف خلال إحدى زياراته لباريس وحذرته من الآثار السلبية لهذا الكلام أبدى غضبه وسألنى باستهجان وكأنه يُسَخّف كلامى: "وهل تتصور أن العلماء سيتركون العلم بسبب هذا الكلام؟".

ورفضُ أية معرفة غير دينية أو أى نوع من أنواع الترفيه خارج إطار الدين كان سائدا فى مصر قبل حملة بونابارت. وكان التعليم يقتصر فى الكتاتيب على حفظ القرآن والأحاديث والشريعة. وإذا كان هناك إجماع ممن يفهمون أن هذه الحملة هى التى أيقظت مصر فلأن محمد على جاء بعدها وفتح الباب للتعليم غير الدينى وأباح الفن والثقافة والمعرفة غير الدينية.

وكما قال الإمام محمد عبده فإن الجهالة ليست قاصرة على ديانة واحدة، ففى أوروبا القرون الوسطى كان محظورا على العامة أن يقرأوا الإنجيل والتوراة وكانت الكتب المقدسة باليونانية القديمة واللاتينية وكانت

ترجمتها إلى اللغات الأخرى مُحرّمة تحريماً باتاً من قبل الكنيسة.

وقد غامر رجل شجاع يُدعى تِندِيل عام 1526 واضطلع بترجمة التوراة إلى اللغة الانجليزية التى كانت وقتها فى بدايتها فقامت قائمة الكنيسة فى انجلترا وحُكم على الرجل بالإعدام وتم خَنقه حتى الموت ثم أحرِقت جثته بعد ذلك عقابا له على أنه أتاح للسوقة وعامة الشعب الاطلاع على الكتب المقدسة.

وكان الشيخ الشعراوى يُفتى فى كل الأمور الخاصة والعامة حتى الطبية منها، وأنقل الحوار الذى دار فى برنامج "من الألف إلى الياء" حرفيا من مجلة أكتوبر (عدد 642 – 1989/2/12) حيث كان هناك سؤال حول شخص يقوم بغسيل كَلَوى مُكلف لأسرته فاعترض الشيخ الشعراوى لأن ذلك يشكل عبئا ثقيلا على من يدفع له العلاج من أهله وأنه يتعيّن على هذا الرجل أن يَسْتكين لمصيره "المكتوب".

فسأل طارق حبيب: أنتركُه يَموت؟

فأجاب الشعراوى دون تردد باللهجة العامية: "لمّا نترُكه.. فيها إيه يعنى؟"

ثم يضيف بلهجة استنكارية حادة: "امِنَعوا الموت بقى".

ومن الصعب أن أجد الكلمات التى أعلق بها على هذا الرأى.

وعلى أية حال فإن للشيخ مفهوما خاصا عن المرض أعرضه عليك أيها

القارىء العزيز دون تعليق أيضا من جانبى حيث يقول: "المرض لفتٌ منَ اللهِ لَمن يُحبه ليُزيح عنه الغفلة عنه، ولأن الإنسان يأتيه الغرور عندما يكون لديه الصحّة والمال والولد" (مجلة أكتوبر – 1994/2/13).

لكنه عندما تعرّض الشيخ للمرض سارع بالذهاب إلى لندن للعلاج وأجرى عملية جراحية وتمّت له عملية نقل دم وكان الطبيب الذى يعالجه يهوديا ويُدعى روزين كما اعترف فى نفس الحوار بمجلة أكتوبر بتاريخ 1994/2/13.

وهناك عشرات بل ومئات الآراء والفتاوى التى أطلقها الشيخ الشعراوى تستحق التأمل وإعادة النظر وسوف أكتفى هنا بتصريحَيْن يتعلق الأول بالمذابح المروعة التى تعرّض لها المسلمون فى البوسنة فى التسعينات من القرن الماضى وتصادف أن وقع زلزال عنيف فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية خلال أحداث البوسنة وهى أحداث استمرت شهورا طويلة فأفتى الشعراوى بإن زلزال كاليفورنيا "مجرد إنذار إلهى لأمريكا بسبب مذابح البوسنة"، ووصفه حرفيا بأن زلزال "تَهْشيكى" وأنه "قَرصة وِدْن للقوة المُنفردة فى العالم" (مجلة أكتوبر عدد 903 بتاريخ 1994/2/13).

وبتاريخ 1992/12/18 صرح لجريدة الأنباء الكويتية: "الإسلام هو الحل حقيقة وليس شعارًا"

ومن يظن أن هذه الجمل مجتزأة على طريقة "لا تَقرَبوا الصلاة" بهدف تشويه المعنى الذى يقصده الشيخ ما عليه إلا أن يعود إلى المصادر التى

أشير إليها ليتأكد من أن المعنى مُتّسق تمام الاتساق مع ما جاء من قبله وما جاء من بعده.

واسمح لى أيها القارىء الكريم أن أنهى هذا الفصل بموقف الشعراوى إزاء قضيتين من أخطر القضايا وأكثرها حساسية وأقصد بهما الأقباط والمرأة. ومنذ ثورة 1919 التى كان واحدا من أهم شعاراتها اتحاد الهلال والصليب، لم يرتفع صوت شيخ أو داعية منتقدا المسيحية أو حتى مُلمِّحا برأى سلبى إزاء الأقباط.

وكان الشيخ الشعرواى أول من يَخرِق هذه القاعدة علنا بعد أكثر من نصف قرن من الزمان وتعرّض فى أكثر من خطبة إلى قضية الجِزّية التى كان يدفعها الأقباط فى مصر حتى ألغاها الوالى محمد سعيد.

وكان الشعراوى يرفض أن يقوم بزيارة البابا الراحل شنودة إلى أن قام البابا بزيارته فى مرضه فقال الشعراوى: "زُرتُه ردا لزيارته وقلتُ له انتَ قدرت على نفسك وجيتنى وأنا مريض". وأضاف أنه عندما سئل قبل ذلك لماذا لا يزور بابا الأقباط أجاب حرفيا: "والله أنا لا أقدر أن أجلس مع إنسان يقول إن عيسى إله" (مجلة أكتوبر – 1994/2/13)

وتوالت السهام بعد ذلك ضد المسيحيين فى خطب وحوارات متوالية لكن الشيخ الشعراوى كان يغلفها دائما بتصريحات مخففة يقول فيها بطرف لسانه إنه لا يحمل ضغينة حيالهم.

ومن أقواله "المأثــورة" وأنقل هنا ما قال حرفيــا: "نستعيذ بالله من

أن نَصْنع تصرفا يُرضِى عنّا اليهود أو النصارى" ويضيف لَمن لم يفهم الرسالة: "معنى ذلكَ أننى بحُكم الله علىّ تَبعتُ مِلّتهم لأن الله تعالى قال: لن تَرض حتى تتبع ملتهم، وبالتالى فإنه إذا رضوا عن أحد فاعلَم أنه ترك مِلّته".

وبعد أن نثر بهذا الكلام بذور الضغينة والكراهية فى القلوب وأوصَى بعدم التعامل بين المسلم والمسيحى إذ أن أى تعامل يفترض الرِضا من الطرفين انبرى الشيخ الشعراوى ليفرِّق بين الرضا والتعايش لأن التعايش كما قال "يَقتَضيك أن تَتَحمّل فِعل قالِب، لكن لا بِحُب قلب".

يعنى باختصار أنه على المسلم أن يتحمَّل القبطى كراهة وعلى مَضَض منه لكنه ليس من المفترض أن يحبّه أو حتى أن يكون ودودا معه.

ومن يتصور أننى أتَقَوَّل على الشيخ وأننى أضع على لسانه كلاما لم يتلفظ به أدعوه إلى فتح اليوتيوب والبحث عن فيديو بعنوان "يجب أن نستعيذ بالله أن نُرضى اليهود أو النصارى الأقباط" وسوف يرى ويسمع الشيخ الشعراوى شخصيا يقول هذا الكلام حرفيا.

وعندما سألت الإعلامى الكبير طارق حبيب عن خبايا حواره الشهير مع الشيخ الشعراوى فى برنامج "من الألف إلى الياء" قال لى إنه اضطر أن يقوم بقصّ بعض المقاطع التى لو تم عرضها لأقامت الدنيا و لم تقعدها ولأشعلت نار الفتنة فى مصر. ومن أخطر الآراء التى اضطر طارق حبيب إلى حذفها هى تأكيد الشعراوى على أنه طبقا لشريعة الله فإنه لا يدخل الجنة إلا المسلمون فقط. ومعنى هذا أن المسيحيين وعددهم أكبر

من عدد المسلمين فى العالم لن يَشمّوا رائحة الجنة مهما قاموا بأفعال حسنة ولو عاشوا حياة الملائكة بلا خطيئة وهو رأى فى غاية الخطورة. وإذا طبقنا هذه الفتوى على مصر فإن معناها أن كل الأقباط بمصر مُحرَّم عليهم دخول الجنة.

أما القضية الثانية التى أودّ أن أختتم بها هذا الفصل فهى قضية المرأة. واسمحوا لى أن أعطى مثالا سريعا عن قضية الحجاب التى تبناها الشيخ الشعراوى بحماسة بالغة وهو أيضا كلام مسجل بالصوت والصورة على اليوتيوب تحت عنوان: "الشيخ الشعراوى يَحسِم قضية المرأة بجملتين من كتاب الله".

ويَروى الشيخ أن سيدة كانت تُريد أن تَتحجَّب لكن زوجها كان يرفض ذلك واستنجَدَت به السيدة فيما يبدو لإقناع زوجها، فماذا قال الشيخ الشعراوى؟

قال مخاطبا تلك الزوجة: "هو كَشَفْ وِشّك علشان يشوف المَكْشوفات الأخْرَيات" ثم أضاف بنبرة ذات مغزى ودلالة: "إنتِ مِش مكَيِّفاه".

وهذه الكلمة الأخيرة تحمل من المعانى ما تحمل وهو تعبير معروف يُستخدم فى أمور العلاقات الشرعية بين الرجل والمرأة. ولا شك أن الزوجة فهمت من كلام الشيخ أن زوجها رجل "ألعوبان" وفاسق يريد أن يكشف وجهها حتى يرى كل النساء الأخريات مكشوفات مثلها، والأدهى من ذلك أنه لا يكتفى بها نظرا لأنها لا "تُكيّفه".

ولا شك أيضا أن الزوجة لم تشعر فقط بمشاعر سلبية تجاه زوجها، لكنها لا بد أنها شعرت أيضا بعقدة النقص إزاء نفسها حيث أنها لا تُعطى زوجها ما يريد ولا تُشْبع رغباته فيها كامرأة.

وموقف الشيخ الشعـراوى من تحجيب الممثـلات و"توبَتِهِنّ" عن الفن معروف للجميع وردَّده عشرات المرات وسعى لإقناع عدة نجمات بالتحجب واستجابت بعضهن أشهرهن الفنانة شادية. وسأكتفى بما قاله عن سيدة الشاشة العربية فاتن حمامة عندما سئل عما يقوله لها إذا قابلها فأجاب: "أطلب منها أن تتحجّب وستظل جذابة" (مجلة صباح الخير بتاريخ 1993/6/24).

و لم يُخفِ الشيخ كذلك نفوره من تعليم الفتيات لأن دور المرأة فى رأيه يقتصر على خدمة الزوج وتربية الأطفال. وقد رَوَى فى حواره مع مجلة "صباح الخير" (1993/6/24) أنه لمّا حصلت ابنته على الشهادة الإعدادية قال لها "ستوب"، ثم يستطرد قائلا: "هى زِعلت، وامها زعلت وعملنا خناقة، قلت لها هىّ كده".

ثم يؤكد الشيخ بعد ذلك أن ابنته شكرته بعد عشرين عاما لأنها لم تُكمل تعليمها وتضطر للعمل و"البهدلة" على حد قوله.

أما عمل المرأة فإن الشيخ لا يُحرِّمه "على إطلاقه" كما يقول، لكنه يَضع له شرطين أنقلهما نصاً من حواره مع جريدة الأحرار (1989/4/24):

"الأول: ألا يكون لها من يَعولها من أبٍ أو أخٍ أو زوجٍ أو ابن.

الثانى: ألاّ يُعرِّضها هذا العمل للاختلاط بالرجال مهما كان هذا الاختلاط."

ويقول فى موضع آخر "عَمَل المرأة ليس إهدارا لكرامتها، لكنه إهدار لكرامة الرجل، حيث كان من الواجب على الرجل أن تَسْمو رجولته وألا يترك امرأته تعمل فى الخارج لكى تُعينه على العيش" (مجلة المصور 1983/7/8).

واسمح لى أيها القارىء الكريم ألا أعلق على هذه الآراء الصادرة بعد نحو تسعين عاما من دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة وأترك لك الحكم على هذين الشرطين لعمل المرأة وعلى مفهوم الكرامة والرجولة لدى الشيخ الشعراوى.

تلك هى الأفكار والمبادىء التى كان يتم ترويجها فى عقول الناس باسم الدين منذ السبعينات. ثم نتساءل بعد ذلك عن أسباب التخلف والانحطاط.

وأكاد أسمع من يقول ساخطا: أتعتبر الشيخ الشعراوى سبب تخلفنا؟

وإجابتى: بل هى منظومة متكاملة استهدفت تغييب العقل المصرى أولا ثم العربى بالتَبَعية وتخديره تخديرا تاما باسم الدين والقرآن والسنة والشرع، والأخطر أنها اعتمدت على جذور ومنابع فى تراثنا بذلتُ كل جُهدى لشرحِها وكشفِها طوال فصول هذا الكتاب.

الإجابـة

الآن جاء وقت المُحاسَبة.. اللحظة التى تُطالبنى فيها أيها القارىء الكريم، وهذا حَقك علىّ، بإجابة مُقنعة عن السؤال الرئيسى الذى تبرَّعتُ بطرحه فى عنوان هذا الكتاب: "لماذا تخلفنا؟" مع العلم أنى أفضل عادة أن يُركِّز المؤلف على تفجير الأسئلة الأساسية مَشفوعة بتحليل لعناصر الرد عليها، على أن يَترك مُتعة الإجابة النهائية لخيال القارىء.

لكنى أعلم أن ذلك لن يَشفى غليل قارىء هذا الكتاب، وأنه ينتظر منّى أكثر من ذلك. ينتظر منى أن أعطى إجابتى الخاصة عن هذا السؤال بعد أن استعرضتُ منابع التخلف وجذوره التاريخية واستحضرتُ الماضى من أجل فهم أسباب مِحْنة الحاضر.

لذلك فسوف أجتهدُ هنا في أن أعْرض إجابات أعتبرها مُقنعة لهذا

السؤال الصعب الذى يُحيِّر جيلى كما حَيَّر مِنْ قبله أجيالا متعاقبة وخاصة منذ أن جاء بونابارت بالمدفع ونور العلم وأحدث صدمة نفسية ووُجُودية هائلة فى نفوس المصريين والعرب والمسلمين وبدأت المقارنات بين حضارة تَقهقرتْ بعد ازدهار في الشرق وهى الحضارة العربية الإسلامية، وحضارة كانت وقتها فى مرحلة العنفوان والانطلاق فى أوروبا.

وأبدأ بالتأكيد على أن القاعدة العامة التى تَحكم التقدّم والتخلف هى أنه كلما كانت الغَلَبة واليَدُ الطولى لحُرَّاس الماضى وأنصار السَلف والتقوقع على الذات فى أى مجتمع من المجتمعات، مالَ إلى التراجع والتخلف. وكلما نجح أنصار المستقبل ودُعاة الاعتماد على العلم والمعرفة ونَبْذ الخرافات والأوهام فى بسط سيطرتهم كلما انفتحت أبواب الرُقىّ والرخاء والازدهار العقلى والمادى.

وإذا أخذنا مثال الحضارة الغربية التى تُسيطر الآن على العالم، سواء كرِهنا ذلك أم أحببناه، وقمنا بدراسة للأسس والمبادىء التى قامت عليها فسوف يتضح لنا أنها لم تَنهض وتترعرع فى القرن الخامس عشر وبعده إلاّ على أساس القطيعة مع الماضى وإقصاء الدين عن الحياة العامة والسياسية، وحَصْر كل الاهتمام والجهود من أجل تحقيق حياة أفضل للإنسان على الأرض، أى حياة مادية تقوم على قيم ومبادىء إنسانية تضع الفرد فى قلب المنظومة الكونية وتُنشىء له حقوقا لا تحدّها إلا القوانين الوضعية النابعة من احتياجات المجتمع والتى تتغير وتتبدَّل كل فترة لملاءمة تطور ظروف كل مجتمع من المجتمعات.

وليس معنى هذا أن الحضارة الأوروبية قرَّرَت القضاء على الدين

قضاء مُبْرَما وتَحريم الإيمان ومَنع ممارسة الشعائر الدينية. إنما ما صَنَعته هو وضع الدين في مَوْضعه الصحيح وإطاره الملائم لكي يؤدي دوره ورسالته السامية وخلاصتها أن يُساهم في السعادة الشخصية للإنسان وليس أن يُستخدم من قِبَل السادة والطبقات الحاكمة والمؤسسات الدينية لفرض سعادة جَمَاعية زائفة على أبناء المجتمع ككل.

وليس معنى هذا أيضا أن الحِضارة الأوروبية سَلَخَت نفسها من ماضيها وأهالتْ عليه التراب وتنكِّرت له وأخفته من الوجود. ما فعلته هو أنها قامت بوأد عناصر التخلف والتردِّي التي استشْرَت في العصور الوسطى وسَعَت إلى إحياء الحضارة اليونانية القديمة بكل ما فيها من قيم ومفاهيم تقدّمية وإنسانية. لكنها لم تكتفِ بذلك بل اتخذت الحضارة اليونانية كَمنصَّة انطلاق نحو المستقبل ارتكازا على المبادىء والأفكار التي وضعها عباقرة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو. ولعل من المهم أن نؤكد هنا على أن الحضارة الهيلينية القديمة هي أول حضارة جعلت من العقل المعيار الرئيسي –وليس الوحيد– لفهم الحياة وتفسير ظواهرها وإدارة شئون المجتمعات.

وانطلاقا من هذه الحقيقة فإن من يَرَ في كتابي هذا دعوة لطمْس تراثنا والقطيعة مع ديننا يُخْطىء في التقدير ويَتجنّ على شخصي الضعيف. فما أنادي به هو استثمار ماضينا العظيم واستخدامه كأساس لبناء الحضارة المستقبلية أي أن نبني فوق ما تركه السلف ونقوم بعملية غرْبَلة لما هو صالح لعصرنا ونترك ما هو غير صالح غير آسفين، ودون أن نخشى من صَيْحات

حراس التقاليد وتَخَرُّصات أنصار التحَجّر وتشنجات عبدة التراث الذين يريدون فرض كل ما تركه السلف دون تغيير أو تعديل أو تبديل، مستغلين شعارات الدين والشريعة لترويع دعاة التقدم وتَقليب العامة عليهم.

حُرّاس الماضى يَعتبرون الدين والتراث هما الغاية والنهاية. أما أنا فأعتبر الدين والتراث بداية دائمة التجدّد. هم يعتبرون أن المستقبل ما هو إلا استنساخ للماضى. أما أنا فأرى أنه فرصة ومِنْحة من السماء لابتداع نوعية جديدة من الحياة، وأنه بداية متواصلة الحلقات من واجب كل جيل أن يَتّكىء عليها لفهم الحياة وتكييف الحاضر على أساس المُتَغيّرات التى طرأت على القواعد الحاكمة للمجتمعات.

وقبل أن أبدأ الخوض فى لبّ الموضوع الذى أعدّه ركنا أساسيا من إجابتى على سؤال "لماذا تخلفنا؟" لا بد من طرحَ ما يُشبه المُذكرة التفسيرية بلغة القانون. فالأديان أو بمعنى أدقّ الحضارات والثقافات التى تقوم على الأديان تَشتَمل دائما على وَجهيْن أو جانبَيْن أساسيَّيْن أولهما المبادىء والقيم السامية المستوحاة من الرسالة الدينية والثانى هو مجموعة من الأحكام والقواعد والعادات والتقاليد المُتَوَلِدة من البيئة ومن العصر التاريخى.

والدين فى جوهره رسالة سامية هى رسالة روحانية عُليا من شأنها أن تكون بوصلة هادية للبشر فى كل مكان. والإنسان فى كل زمان ومكان فى حاجة لمَثل أعلى يوفره الدين نظرا لأن هذا الأخير يُعطى إجابات للأسئلة الحائرةً التى يَعجَز عقل البشر عن الإجابة عنها.

وهذا هو الوجه الأول والجوهرى فى كافة الأديان التى نزلت إلى الأرض بهدف نشر الإخاء والمحبة بين البشر ووضع أسس السعادة والاطمئنان والسَكينة فى قلب كل واحد من أبناء البشرية. وهذه الحاجة البشرية إلى وجود الله هى التى دَعَت الفيلسوف الكبير فولتير لأن يقول إنه لو لم يكن الربّ موجودا لكان لا بد من اختراعه.

ونجدُ فى رسالة الإسلام قيما خالدة أقرّها القرآن وأكّدتها السنة مثل الحق والخير والرحمة والعدل والمساواة بين الناس. وهذه المبادىء هى التى يجب أن نتمسك بها بقوة ونهتدى بها ونلتزم بها التزاما حقيقيا على عكس ما يَصنعه من يُبَشرون بها باللسان ثم يَظلمون ويَنهبون ويُقدِمون على أفعال الشرّ.

لكن هناك كما قلت جانبا ثانيا لا يمكن إغفاله وإلا فإننا نقع فى خطأ وقع فيه عَمْدا أو بغير قصد كل من حاولوا استخدام الدين وتطويع تعاليمه للسيطرة على عقول الناس. ولكى نفهم هذا الجانب الثانى لا بد من أن نعى حقيقة يحاول الكثيرون الالتفاف حولها. فكل الأديان نشأت فى لحظة تاريخية مُحَدَّدة وفى مكان جغرافى محدد وفى ظل ظروف مجتمعية واقتصادية وبيئية وحياتية خاصة وكان لا بد أن يأخذ الرُسُل كل هذه الظروف فى الحسبان من أجل التوصل إلى إقناع الناس بالدين الجديد.

وجوهَر المأساة هى أن من يريدون العودة بنا إلى العصور الذهبية للحضارة الإسلامية يَخلطون عمدا بين الوجهين أو الجانبين بل ويَتمَسَّكون بجانب على حساب الآخر وأقصد به تلك القواعد والعادات والتقاليد

والأعراف التى يُصرّون على تطبيقها فى عصرنا الذى لم يَعُد يتقبلها. من ينادون بالعودة إلى العصور الذهبية للإسلام يعتبرون تلك الأحكام والتقاليد والشرائع وكأنها الركن الأساسى للدين.

وأنا أعتبر أن مِحْنة المجتمعات العربية وأعمق أسباب تخلفها تنبع من أنها عَجَزت عن رفع اللبس بين هذين الجانبين الموجودين فى كافة الأديان، فى حين أن المجتمعات المتقدمة فى الغرب وفى الشرق نجحت فى فضّ الاشتباك المُتَعمَّد بينهما لأن الخلط بين الجانبين يَصُبّ دائما فى مصلحة الحُكّام والطبقات المُمَيّزة على حساب الشعوب.

وأتوقع أن يهبّ المُزايدون والمُتَحَجِّرون مُعترِضين صائحين بأن الدين واحد لا يتجزأ وأن الحديث عن وجهين أو جانبين للدين هو نوع من التجديف. وأطرح على هؤلاء السادة سؤالا بسيطا: إذا كان الأمر كذلك ياسادتى الأفاضل فلماذا لا تطالِبون بتطبيق كافة الأحكام الواردة نصّا فى القرآن الكريم؟

لماذا تَجْبُنون عن المطالبة بقطع يد السارق عَمَلا بقوله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة 38) ؟

لماذا لا تطالبون بتطبيق حد الحِرابة وهو :

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ﴾ (المائدة 33)؟

لماذا تَخونكم الشجاعة فى المطالبة بتطبيق حدّ الزنا؟

وبرغم أن حدّ الزنا فى القرآن الكريم هو مائة جلدة كما جاء بالآية الكريمة ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور 2)، إلا أن الشريعة المعلومة تقضى بأن عقوبة هذه الجريمة هى الرَّجْم بالحجارة حتى الموت حيث انعقد الإجماع بين الأئمة الأربعة وكذلك بين أئمة الشيعة على ضرورة رجم الزانى والزانية مع وجود بعض الاختلافات فى تطبيق شروط الرجم ما بين مُحْصَنين وغير محصنين وما بين الأحرار والعبيد؟

لماذا لا تطالبون بتطبيق عقوبة الجلد المنصوص عليها فى أكثر من آية بالقرآن الكريم والتى لم يَعُد لها وجود فى مصر منذ أكثر من نصف قرن؟

لماذا تقبلون على أنفسكم الصمت و"الطناش" بلغتنا الدارجة عن أحكام واضحة جَلية تُعدّ من الآيات المُحكمات التى لا تقبل التأويل والتفسير؟

لكنكم لا تفعلون هذا؟ والسبب عندى واضح وهو أنكم تَعْلمون عِلم اليقين أن الغالبية العظمى من الشعوب الإسلامية سوف تعترض على ذلك نظرا لأن هذه العقوبات لم تعد تناسب هذا العصر وأن هناك عقوبات وأحكاما بديلة لم تكن موجودة وقت الدعوة.

وصَمْتكم عن عدم تطبيق هذه الحدود وتلك العقوبات ليس دليلا فى ظنّى على تقاعُسكم عن الدفاع عن الإسلام، إنما هو اعتراف ضِمنى منكم ياسادة بأن هناك جانبين واضحين للدين: الأول هو الرسالة السامية التى لا بد من التمسك بها فى كل العصور والظروف والآخر هو ذلك الجانب المُرتبط بالملابسات التاريخية التى ظهرت فيها الأديان وهو الجانب الذى

ترك فيه الله للإنسان حرية إعمال العقل وقد ألمح الرسول الكريم إلى ذلك حين قال: "انتم أعلم بأمور دنياكم".

والزمن الذى ظهرت فيه الدعوة كان زمنا يتميّز بالقسوة والغلْظة وسفك الدماء وعدم احترام حق الإنسان فى الحياة، وكان زمنا تُطبَّق فيه بكل المجتمعات البشرية عقوبات مُرَوّعة مثل فقء الأعين والصَلب والحَرْق وتقطيع الأيدى والأرْجل واللسان وجَدْع الأنف والرجم بالحجارة والجلد وكلها عقوبات لم يعد أى إنسان سَوِىّ النفس يقبلها الآن، لكن الناس آنذاك فى كل مكان كانوا يتقبلون تلك العقوبات ويعتبرونها أمورا عادية وطبيعية بل ولا بديل عنها من أجل الحفاظ على الأمن ورَدع المجرمين.

وبعد هذا الاستطراد السريع اِسمح لى أيها القارىء العزيز أن أعود للحديث عن الجانبين اللذين أتصور وجودهما فى كافة الأديان السماوية وسوف أعطى لك مِثالا واحدا لإبراز الفارق بينهما من أجل توضيح الأمر فى الأذهان. فمَعْلوم أن جوهر الأديان السماوية يتناقض مع الرِقّ ومع وجود عَبيد أذلّاء مقهورين يُباعون ويُشتَرون لأن ذلك يتنافى مع آدمية البشر وأبسط حقوق الإنسان. ومن البديهى أن الأديان السماوية ضد العبودية وأنها مع المساواة بين الناس والأخوّة بين الجميع دون تفرقة بين غنىّ وفقير وأبيض وأسود.

ومع ذلك فلا يوجد دين واحد من الأديان السماوية ألغَى الرِق وحَرَّم العبودية ومَنَعَ بيع وشراء الأطفال والرجال وخاصة الفتيات اللاتى كان من يَشتَريهن يتمتّع بهن جنسيا دون أن يكون لهن حق الرفض أو الاعتراض.

ألم تسأل نفسك أبدا أيها القارىء العزيز كيف لم يَحسم الإسلام قضية العبودية وكيف لم يُلغِ الرق نهائيا وقطعيا بآية كريمة مُحكَمَة أو بحديث مُتَّفق عليه؟

من يستخدم عقله يشعر فى البداية أن هناك تناقضا غير مفهوم. لكن من يَع الجانبين اللذين تقوم عليهما الأديان ومن تكون لَدَيه القدرة والشجاعة عَلَى التفرقة بينهما يُدرك أن الحقبة التاريخية التى ظهرتْ فيها كل الأديان السماوية لم تكن تسمح بذلك، وأن الدين الإسلامى شجَّع على تحرير رقاب العبيد وجَعَلَ منه فدية وكفارة للذنوب.

لكن إلغاء الرق كان يستلزم بيئة مختلفة وعصرا مختلفا وعقولا مختلفة وكان يتطلب نفسيات أكثر رُقيّا وتَمَدّنا من تلك التى كانت موجودة فى العصور القديمة. وقد استلزم الأمر قرونا طويلة حتى تَقتنع المجتمعات تدريجيا بحق الإنسان فى الحياة وفى الحرية وبضرورة إلغاء الرق وبوقف العقوبات البَدَنية العنيفة، وأصبحت كافة التشريعات تَميل اليوم فى اتجاه عدم تغليظ العقوبات والتشدّد فيها حتى أن نحو 70 فى المائة من دول العالم الآن قد ألغت عقوبة الإعدام نهائيا أو أوقفت العمل بها تماما، وللأسف أن الدول الإسلامية هى التى ترفض فى معظمها إلغاء عقوبة الإعدام بحُجَّة أن ذلك يتناقض مع الدين الإسلامى.

وقد سجَّل التاريخ أن الدول الإسلامية كانت آخر الدول التى أذعَنَت لضغوط المجتمع الدولى بعد أن رفضت طويلا التوقيع على المعاهدات الدولية حول العبودية ولم يَقم بعضها بإلغاء الرق رسميا إلا فى نهاية الستينات من القرن العشرين.

وإذا كان أنصار التقاليد والسلف الصالح أمَناءَ مع أنفسهم فلا بد أن تكون من أبرز مطالبهم الآن العودة إلى نظام الرق الذى كان سائدا فى الجزيرة العربية قبل وبعد الدعوة وطوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين وحكم السلاطين والمماليك والولاة والأمراء وكل من توالوا على شأن الأمة الإسلامية وشعوبها.

فهل يقبل أحد الآن أن نعود إلى زمن العبيد وأن نَسترقّ الجوارى والأطفال؟ هل مطلوب منا أن نُعيد عقوبة الجلد وقطع الأيدى مع أن هناك عقوبة بديلة لم تكن موجودة فى زمن هبوط الرسالة وهى السجن والحرمان من الحرية. وربما لا يعلم الكثيرون أنه لم يكن هناك سجن واحد في الجزيرة العربية كلها وأنه كانت هناك بعض الأماكن يُحتجز فيها المُذنبون حتى تُنفذ فيهم العقوبة، لكن الحبس لم يكن عقوبة فى حد ذاته.

وإذا أخذنا موضوع اللحية والحجاب اللذين يعتبرهما الكثيرون محورا من أهم محاور الدين ورمزا من أهم رموز الإسلام، فلو علمنا أن كل شعوب وقبائل العالم فى زمن الإسلام كان الرجال فيها يُطلقون لحاهُم وكانت النساء تَسْترن شعورهن كما أثبتُ فى كتاب "ثورة المرأة" لأدركنا أن القضية ليست قضية دين وإنما قضية اختلاف الأزمان وقضية عادات وتقاليد وقواعد مجتمعية قديمة لم يخالفها الدين الجديد آنذاك لأنها كانت جزءًا من شخصية الإنسان فى ذلك العصر.

ولماذا لا نقول إن ركوب الجمل والتنقل به سُنّة؟ ألم يكن سيدنا محمد لا يتنقل إلا بناقة فى أغلب الأحيان؟ ألم يكن الصحابة يركبون الجمال للسفر والترحال؟ لماذا لا نقول إن أكل البامية والملوخية والبطاطس والمانجة

والتفاح والموز ومعظم الخضروات والفواكه بدعة لأنها لم تكن موجودة في زمن الرسول؟

لأنه لو قلنا هذا ولو قمنا بتحريم كل ما لم يكن موجودا فى عصر النبوة نكون قد خَلَطنا بين الجانبَيْن الأساسيّين للإسلام ولأية ديانة سماوية: "الرسالة" من ناحية و"الظروف التاريخية" لنزولها من ناحية أخرى.

وإذا أردنا استخراج نتيجة من الفصول السابقة لهذا الكتاب فهى تتلخّص فى جملة مفيدة واحدة: لن يتقدم أى مجتمع إلا بعد أن يتحرَّر من إقحام الدين فى الحياة العامة والسياسية.

لن يتقدم أى مجتمع إلا بعد أن يَتَخلّص من الخلط بين الجانبين أو الرُكنَيْن اللذين يقوم عليهما الدين. فالدين نزل للإنسان ونزل للفرد ليُطهِّر نفسه وليَهْديه إلى سواء السبيل لكنه لم ينزل لتحديد سبل الحياة فى المجتمعات المنظمة. الدين نزل ليُدخِل السكينة فى القلوب وليعاون الإنسان على أن يحيا فى سعادة روحية وداخلية ويصمد أمام مشكلات الحياة ومصاعبها. الدين نزل ليعطى الإنسان تفسيرا للغز الحياة.

لم تنزل الأديان لكى يستغلها الحكّام ويستثمرها الأغنياء من أجل تَخدير الشعوب وإقناعها بأن تَرضَى بحياة الفقر والضنك والحرمان وأن تَحْنِى رأسها لِما تتصور أنه قدرٌ هابط من السماء. لم تنزل الأديان ليتقاتَل الطامعون فى السلطة باسمها ويَقمعون الشعوب رافعين شعاراتها.

تخيلوا معى ثقافة تلوك نفس القِصص وذات الروايات بنفس الكلمات

والتعابير والتراكيب وتَتَناقل نفس الحِكَم والمواعِظ وتكرِّر نفس الآراء والأفكار وتَروى نفس الحكايات والمَواقف والوقائع لمدة 1400 سنة متوالية جيلا بعد جيل بعد جيل بعد جيل بعد جيل بعد جيل بعد جيل.... دون تجديد أو تحديث أو موائمة تتوافق مع تطورات الحياة وتَغيُّر الواقع المُعاش.

كيف تكون عقول الناس الذين يتعرضون لهذا الانغلاق الفكرى والتَصَحّر العقلى؟ هل من الممكن أن نتوقع منهم الانخراط فى عجلة التطور التى تتطلب المرونة الفكرية والتأقلم العقلى للواقع والتواؤم مع طبيعة التطور؟ أم نتوقع أن تصدأ عقولهم وتَتَعَفن وكأنهم يعيشون فى بركة آسنة مليئة بالجراثيم والميكروبات والفيروسات وأن يكون موقفهم التلقائى هو الوقوف بالمرصاد لأى تطور واتخاذ موقف الحمار الذى يرفض تغيير مساره المعتاد مهما أوْسَعَه صاحبه ضربا وركلا؟

وفى كل فترة يخرج علينا من يقول إن المشكلة هى أننا لا نفهم الإسلام ولا نطبّق الدين الصحيح. ومنذ نكسة يونيو 67 لا يكفّ الوُعّاظ والشيوخ الجُدُد عن اللعب على هذا الوتر والمطالبة بالعودة إلى السلف الصالح والماضى المجيد. لكن المشكلة ليست فى فهم الدين وإنما فى الخلط بين جانبى الدين اللذين تحدثتُ عنهما.

فما هو التطبيق الصحيح؟ أهو اتباع تفاسير ابن تيمية أم ابن رشد أم أبو حامد الغزالى؟ أهو تفاسير ومناهج أبى حنيفة أم مالك أم الشافعى أم ابن حنبل؟ أهو مفهوم حسن البنا أم الخومينى أم المودودى أم الشيخ

محمد عبده؟ أهو تفسير أسامة بن لادن والظواهرى أم الشيخ الشعروای أم شيخ الأزهر؟

طالما أننا نختلف ونتقاتل ونتراشق بالحجارة ونتبادل الاتهامات بالكفر والتقصير فى الفهم وطالما عَجَزت الأمة الإسلامية فى أى عصر باستثناء عصر النبوة عن الاتفاق على منهج واحد ثم ظهرت الردة فور انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى.. طالما تطاحَن المسلمون وذَبَحَ بعضهم بعضا حول تفسير الدين ألم يَحِن الأوان أن نخرج من ذلك الطريق المسدود الذى لن يؤدى إلا إلى مزيد من التخلف والانحطاط ونصل إلى نتيجة تُعيد للإسلام سابق عهده وتعيد للبلدان الإسلامية الطمأنينة والاستقرار والسلام بين بعضها البعض ومع الآخرين؟

وهذه النتيجة هى التى خَرَجَت بها الدول التى "شَرَخَت" وتطوَّرت وانطلقت على طريق التقدم، وتلك النتيجة هى التى جعلت أوروبا الغربية تنتفض منذ أكثر من خمسة قرون وتعيش فى ظل أفكار النهضة والتحديث والتَمَدّن، كما انتهجت الدول الآسيوية الكبيرة مثل اليابان والصين والهند وكوريا نفس النهج فصارت شعوبها فى طليعة شعوب العالم. وتلك هى النتيجة هى التى نادى بها كبار رجال النهضة على استحياء خوفا من إثارة غضب التيار التقليدى المنغلق المحافظ الذى لا يكف عن المناداة بإبقاء الحال على ما هو عليه ورفض أى جديد حماية للسلطان وللأغنياء والوجهاء وأصحاب السلطة والصولجان والهيلمان.

وطالما لم نَقبَل أن نَتَخلى عن منطق "العقيدة فوق الحقيقة" وطالما استسلمنا طائعين لعالم الأوهام والخرافات، وطالما لم نتفهم الأسباب

الكامنة وراء العيوب التى قمنا بتحليل جذورها فى الصفحات السابقة، فإننا نكون فى هذه الحالة مُصرِّين إصرارا عنيدا على المُضىّ فى طريق التخلف والتردى والسقوط ومُصَمِّمين على السير فى الاتجاه المعاكس لطريق التمدن والتقدم.

تلك هى روشتة الحضارة فى العصر الذى نعيش فيه. ربما تكون بها أدوية لها طعم الحَنْظل، وربما تكون مُحتوية على شَرْبة لها مرارة العَلقم، لكنه لا مفر منها لبناء واكتمال عناصر الرقىّ والتقدم. فإما أن نقبلها وندخل فى زُمْرة المجتمعات المتقدمة شرقا وغربا، وإما أن نرفضها ونتشبَّث بالماضى والتقاليد والأعراف فنظل ندور فى حلقة مُفرَغة ونَتخبَّط فى دائرة جهنمية من الجهل والتخلف.

صدر للمؤلف

- 1992 "هل فرنسا عنصرية؟" دراسة فكرية، مؤسسة الأهرام.
- 1994 "الشيخ عبد الله" مجموعة قصص قصيرة أُخِذَ عنها فيلم "بطل من الجنوب"، مؤسسة الأهرام.
- 1995 "لن تسقط أورشليم" مسرحية عُرضت على المسرح القومى، مؤسسة الأهرام.
- 1998 "نهاية التفكير" دراسة فكرية، مؤسسة الأهرام.
- 2002 "الداء العربى" دراسة فكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 2004 "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبوية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 2006 "تحطيم الأصنام" دراسة فكرية، دار الشروق.
- 2007 "أنا والأشياء"، مؤسسة دار الهلال.
- 2009 "لماذا؟" قصائد نثرية، دار أخبار اليوم.
- 2010 "ثورة المرأة" دراسة فكرية، مؤسسة الأهرام.
- 2010 "الديناصور" رواية، مؤسسة الأهرام.
- 2011 "مستقبل مصر بعد الثورة" دراسة فكرية، دار مدبولى للنشر.

لماذا تخلّفنا؟

ولماذا تقدم الآخرون؟

كلنا مُتّفقون على أن مصر والبلدان العربية تعيش فى حالة من التخلف الثقافى والعلمى والاجتماعى، وكلنا لا نكف ليل نهار عن الشكوى من أحوالنا المتردّية، وكلنا نلمس ونعرف الأعراض الظاهرة لحالتنا من انحطاط أخلاقى وتعصّب وعجز عن تحقيق أى إنجاز مفيد للإنسانية.

لكن هل تقع مسؤولية هذا التخلف على الجيل الحالى وحده؟ أم أن له منابع تراثية وجذورا فى أعماق تاريخنا؟

هذا الكتاب يذهب إلى أبعد من مجرد رصد الظواهر السطحية، فهو يقوم برحلة فى جذور العقل العربى الإسلامى بحثا عن منابع هذا التخلف الذى يمنعنا من الانطلاق ومن إقامة مجتمعات ديمقراطية يطيب ال
طبقات الشعب وليس لشريحة من المَحظوظين وأصحاب الا
الكتاب يكشف أكبر عملية نَصب واحتيال فى التاريخ
وعلماء السلاطين باسم الدين من أجل إخضاع الشعوب
العربى وحَرَموه من نعمة الرقى والتقدم.

غلاف: محمد عبدالعزيز





